

القافلة
جمادى الثانية ١٤٠٤هـ مارس/ابريل ١٩٨٤م
البتراء..
تحفة أثرية
رائعة الجمال



انتشار الأشجار والأزهار على جوانب الشوارع والطرقات يضفي على النفس جوا من البهجة والسرور. **تصوير: محمد صالح آل شبيب**

بسم الله الرحمن الرحيم

القافلة
THE CARAVAN

MARCH/APRIL 1984

العدد السادس / المجلد الثاني والثلاثون
جمادى الثانية ١٤٠٤هـ مارس / ابريل ١٩٨٤م

تصدر شهريا عن شركة أرامكو لموظفيها
إدارة العلاقات العامة

العنوان

صندوق البريد رقم ١٣٨٩
الظهران - المملكة العربية السعودية

توزع مجاناً

المدير العام : فيصل محمد البسام
المدير المسؤول : إسماعيل ابراهيم نواب
رئيس التحرير : عبدالله حسين الغامدي
المحرر المساعد : عوني أبو كشك

صورة الغلاف :

أحد المباني الشاهقة التي قدّت في صخور البتراء.

تصوير : ايلين دن



البتراء .. تحفة أثرية رائعة الجمال



مشاتل المنطقة الشرقية بين الأمس واليوم

تصميم وطباعة شركة مطابع المطوع - الدمام
DESIGNED AND PRINTED BY AL-MUTAWA PRESS CO. - DAMMAM

شرع

بين السنة والبدعة

بقلم: د. أحمد جمال العمري / جامعة الملك عبدالعزيز / جدة

الحق سبحانه، الدين الحنيف، وتوخى فيه السماحة والحكمة، فلم يأت بما فيه حرج، أو ينبو العقل السليم عن قبوله، وكانت هذه السماحة والحكمة من أسباب انتشاره، ومن عوامل ظهوره على الأديان كلها.. وخلوده أيضا، حيث بلي بعض الشرائع السابقة، فدخلها التبديل والتأويل.. ولقد اشتدت عناية الشارع بتحذير الناس من أن يحدثوا في دين الاسلام ما ليس منه، وفي ذلك يقول النبي المصطفى، ﷺ: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو ردّ». ويقول أيضا: «كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»[1].

ولم يخلص الدين — مع هذه الزواجر — من طوائف يلصقون به ما ينافي سماحته، أو يشوّه وجه حكمته، وقد كثرت هذه البدع حتى حجبت جانبا من محاسنه، وكان لها أثر في تنكر بعض القلوب لهدايته، وهذا ما حمل العلماء المخلصين على أن يتناولوا البدع بالتحديد والتأليف..

وهنا سؤال يطرح نفسه: ما هي السنة؟ وما هي البدعة؟.. وما الفرق بين السنة والبدعة؟

٭ السنة: بالاضافة الى كونها أقوال النبي، ﷺ، وأفعاله وتقريراته، فهي من أصل اللغة: الطريقة، حسنة كانت أم سيئة، ويطلقها الفقهاء: على ما يثاب فعله، ولا يعاقب على تركه مما فعله رسول الله، وواظب عليه.

وتطلق أيضا على ما يقال البدعة، فيراد ما وافق القرآن، أو حديث رسول الله، ﷺ، من قول أو فعل أو تقرير، وسواء كانت دلالة القرآن أو الحديث على طلب الفعل مباشرة أو بوسيلة القواعد المأخوذة منها، وينتظم في هذا السلك.. عمل الخلفاء الراشدين، والصحابة الأكرمين، للثقة بأنهم لا يعملون الا على بيّنة من أمر دينهم.

قال عمر بن عبد العزيز: «سنّ رسول الله، ﷺ، وولاة الأمور بعده سننا، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، من عمل بها مهتد، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين.».

أما دلالة القرآن، أو قول رسول الله على أن الأمر مشروع فواضحة، ولا شأن للمجتهد في صيغ الأوامر الا أن يتفقه فيها حتى يحملها على الوجوب أو الندب، ويتدبر أمرها فيما اذا عارضها دليل آخر، ليقضي بترجيح أحدهما على الآخر، أو يفصل في أن هذا ناسخ لذاك، وطرق الترجيح أو الحكم بالنسخ مقررة في كتب الأحكام.

والذي يستدعيه البحث في هذا المقام أن نتحدث عن فعله، صلى الله عليه وسلم، واقراره، حتى نعلم الضرب الذي كان لنا فيه أسوة حسنة، وسنة قائمة متبعة.

ومن أفعاله، ﷺ، ما يصدر عن وجه الجبلّة، أي العادة، كالقيام والقعود، والاضطجاع، والأكل والشرب واللبس، وهذا الضرب غير داخل فيما يطلب فيه التأسي، وغاية ما يفيده فعله، ﷺ، لمثل هذه الأشياء الاباحة. فاذا جلس رسول الله، أو قام في مكان أو زمان، أو ركب نوعا من الدواب، أو تناول لونا من الأطعمة، أو لبس صنفا من الثياب.. فلا يقال فيمن لم يفعل شيئا من ذلك أنه تارك للسنة.

ومن أفعاله، ﷺ، ما علم اختصاصه به، كالوصال في الصوم، والزيادة في النكاح على أربع، ولا نزاع في أن مثل هذا ليس محلا للتأسي، وما كان لأحد أن يقتدي به فيما هو من خصائصه.

ومنها ما عرف كونه مبيّنا للقرآن، كقطعه يد السارق، بيانا لقوله تعالى: «**فاقطعوا أيديهما**»، وتحديد كيفية الصلاة، ومقدار الزكاة، وكيفية أداء مناسك الحج والعمرة.. وحكم الاقتداء به في هذا حكم المبيّن من وجوب أو استحباب.

ومن افعاله ﷺ، ما لم يكن جبلّيا، ولا خصوصيا، ولا بيانا.. وهذا اذا علمت صفته في حقه، ﷺ، من وجوب أو ندب أو اباحة، فأمته تابعه له في الحكم، اذ الأصل تساوي المكلفين في الأحكام. فان فعل النبي، ﷺ، أمرا، ولم يقم دليل خاص على أنه فعله على سبيل الوجوب او الندب، أو الاباحة.. فهذا اما أن يظهر فيه معنى القربة، مثل افتتاحه الرسائل بعبارة «بسم الله الرحمن الرحيم» فيحمل على أقل مراتب القرب، وهو الندب. واما أن لا يظهر فيه معنى القربة، فيدل على أنه مأذون فيه. ومن أهل العلم من يذهب به مذهب المندوب اليه، نظرا الى أنه ﷺ مشرّع، فالأصل في أفعاله التشريع. ومثال ذلك: ارساله شعر رأسه الشريف الى شحمة الأذن، وهو عمل لا يظهر فيه معنى القربة، ولكن بعض أهل العلم، كالقاضي أبي بكر بن العربي، وأبي بكر الطرطوشي جعلوه من مواضع الاقتداء. بينما رأى آخرون.. أن هذا محمول على العادة، فاذا جرت عادة قوم بنحو الحلق، فلا يوصفون بأنهم تركوا ما هو سنة.

وقد يتقارب الحال في بعض الأفعال، فلا يظهر جليا أهو عادة أم شريعة، فتتردد فيه أنظار المجتهدين. نحو جلسة الاستراحة في الصلاة عند قيامه للركعة الثانية أو الرابعة. فذهب بعضهم الى أنه لم يفعلها على وجه القربة، فلا تدخل في قبيل السنة. وعدّها طائفة فيما يستحب من أعمال الصلاة.

ومما لم يظهر فيه معنى القربة، تقديم اسمه، ﷺ، في الرسائل على اسم المرسل اليه. ولهذا لم يحافظ عليه بعض السلف محافظتهم على ما يفهمون فيه معنى القربة، فأجازوا تأخير اسم المرسل على اسم المرسل اليه.

سئل الامام مالك عن ذلك فقال: «لا بأس به». بل لقد روى أن ابن عمر، وهو من أشد الناس تمسكا بالسنة، ومحافظة عليها، قد كتب الى معاوية، ثم الى عبد الملك بن مروان، وقدم اسميهما على اسمه (٢).

وكذلك يفصل القول في ترك النبي، ﷺ، لبعض الأشياء.. من ذلك ما تركه من أجل كراهته له جبلة، كما حدث من امتناعه عن أكل الضب ـ وهو من حيوانات الصحراء. ولما قال له خالد بن الوليد: أحرام هو يا رسول الله؟ قال: لا، ولكنه لم يكن بأرض قومي، فأجدني أعافه». وليس ترك النبي، ﷺ، للشيء على هذا الوجه من مواضع التأسي. والدليل على ذلك: ان خالدا سمع هذا الجواب، وما لبث أن جرّ اليه الضب فأكله.

ويجري على هذا النحو ما يتركه، ﷺ، لتحريم يختص به، كتركه أكل الثوم وما شاكله من كل ذي رائحة كريهة. فلغيره من المسلمين تناوله. ولا يكون بتناول المسلمين للثوم أو البصل خارجين عن حدود قوله تعالى: «**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة**».

فان لم يكن تركه للشيء من ناحية الجبلة، أي العادة، ولم يثبت أنه كان لمنع يختص به.. فان علم حكم هذا الترك في حقه. من حرمة أو كراهة، كانت الحرمة أو الكراهة شاملة لأمته.. بحجة أن الأصل عدم الخصوصية. فان ترك النبي ﷺ، أمرا، ولم يعلم حكم هذا الترك دل على عدم الاذن في الفعل، وأقل مراتب عدم الاذن: الكراهة، فيحمل عليها، حتى يقوم الدليل على ما فوقها وهو التحريم.

واذا ترك النبي، ﷺ، الأمر لمانع من الفعل يصرح به، أو يفهمه المجتهد بطريق الاستنباط، ثم يزول هذا المانع، فانه يصح النظر بعد في أمر المتروك، ويجري حكمه على ما تقتضيه أصول الشريعة. كما ترك النبي، ﷺ، صلاة القيام في رمضان جماعة، وذكر أن المانع في استمراره عليها، خوف افتراضها عليهم. ولما انقطع الوحي بانتقاله، ﷺ، الى جوار ربه، ارتفع المانع من صلاة التراويح جماعة، وهو خوف الافتراض، فلم يبق في تركها موضع للتأسي، ولذلك رجع بها عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، الى الأصل، الذي هو فعل النبي، ﷺ، لها في جماعة.

ومن هذا الباب: تركه ﷺ قتل «حاطب بن أبي تلعة» الذي تجسس حين اطلع على كتاب أرسله الى قريش يخبرهم فيه ببعض أمر رسول الله، وقال النبي، ﷺ، ردا على عمر بن الخطاب الذي أراد ضرب عنق هذا المنافق المتجسس: «انه شهد بدرا، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرا، فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» (٣).

ففي ظاهر هذا الحديث تعليل عدم قتله بشهود واقعة بدر — فمن لم تتحقق فيه هذه المزية ممن يتجسسون على المسلمين، ويبلغون أخبارهم للمحاربين، يبقى أمره موكولا لاجتهاد الامام، ليجازيه بما تقتضيه المصلحة، ولو بالاعدام، وهذا ما يقوله امام دار الهجرة «مالك بن أنس» رحمه الله.

واذا ترك النبي، ﷺ، أمرا لم يظهر في عهده ما يقتضي فعله، ثم طرأ حال يجعل المصلحة في الفعل، ارتفع طلب التأسي في الترك، وأصبح ذلك الأمر مجالا لنظر المجتهد، حتى يفصل له حكما على قدر المصلحة الداعية الى فعله. ومثال ذلك: جمع القرآن الكريم، فان الرسول، ﷺ، لم يجمع القرآن في مصحف، اذ لم يظهر في عهده ما يدعو الى هذا الجمع، ولكن كثرة من استشهد من الحفاظ في حروب الردة، أثارت الخوف على القرآن من الضياع، ورأى أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، صحة الجمع لهذا المقتضى، الذي لم يكن في عهد الوحي قائما.

ولا يدخل في الترك الذي نحن بصدده — عدم فعل النبي، ﷺ، لأمور لم تكن وسائلها قد تهيأت في عهده، فلا يخطر على البال أن نمنع مثلا وضع الساعات التي تعرف بها الأوقات في المساجد، ونستند في هذا المنع الى أن النبي، ﷺ، لم يفعل هذا في مسجده الشريف.

وليس من الفقه أن نرد الخبر بثبوت ظهور هلال شهر رمضان — يأتي عن طريق البرق أو الهاتف، بدعوى أن الأخذ به مخالف للسنة، اذ لم يأخذ النبي، ﷺ، في اثبات الشهر الا بشهادة يؤديها من في حضرته، وانما يعد مثل هذا من قبيل المسكوت عنه، فلأهل العلم أن يتناولوه بالاجتهاد، ويلحقوه بالأصل الذي يصح تطبيقه عليه.

انما الترك الذي يدل على عدم الاذن: هو ما يروى في لفظ صريح. من مثل تركه، ﷺ، الأذان والاقامة ليوم العيد، وتركه غسل شهداء أحد والصلاة عليهم. ويلحق بهذا تركه الذي لم ينقل بلفظ صريح، ولكنه يفهم من عدم نقلهم للفعل الذي شأنه أن تتوفر الدواعي على نقله لو وقع.. فيصح لنا أن نقول: من السنة ترك رفع الأصوات بالذكر أمام الجنازة، ويكفي في الاستشهاد على أن السنة ترك رفع الأصوات.. عدم نقلهم لفعله، ﷺ.

وقد وردت أحاديث كثيرة على أن الصحابة، رضوان الله عنهم، كانوا يتركون الأمر لمجرد ترك النبي، ﷺ، له، من ذلك ما ورد انه خلع نعله في صلاة فخلعوا نعالهم حتى أخبرهم بعد — بأنه علم من طريق الوحي أن بالنعل نجاسة (٤). ومن ذلك أيضا: أنه كان ﷺ قد اتخذ خاتما من ذهب، فاتخذوا خواتم من ذهب، ثم نبذه، وقال: «اني لن ألبسه أبدا» (٥) فنبذوا خواتمهم.

ومن عرف مسابقة الصحابة — رضوان الله عليهم — الى الاقتداء برسول الله حتى في ترك المكروه، لم يجد في أمثال هذا الحديث دليلا كافيا على أن تركه للشيء يحمل على أشد مراتب النهي.. وهو التحريم. وحرمة استعمال خاتم الذهب مأخوذة من الأحاديث الدالة على حرمة استعمال الذهب زينة للرجال.

ومن مقتضى ما تقرر من عصمة النبي، ﷺ، وأمانته في التبليغ، أن لا يقر أحدا على أمر غير مأذون فيه شرعا، فيكون أقراره للأمر دليلا على أنه لا حرج في فعله، سواء شاهده، ﷺ، بنفسه فسكت، أو بلغه من أحد فلم ينكره.

---

(١) رواهما البخاري في صحيحه.

(٢) انظر صحيح البخاري: الأدب المفرد.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه الامام أحمد في مسنده.

(٥) رواه البخاري في صحيحه.

وما لا حرج فيه يشمل الواجب، والمندوب، والمباح، فيحمل على أقل مراتبه، وهو الجواز، حتى يقوم الدليل على الندب أو الوجوب. ولا يدل الاقرار على جواز الفعل في حق من أمره النبي، ﷺ، وحده بل، يكون الجواز حكما شاملا لجميع المكلفين، أخذا بالأصل العام، الذي هو استواء الناس في أحكام الشريعة.

فليس لأحد — على سبيل المثال أن يعد التدريب بالسلاح — في المسجد — استعدادا للجهاد أمرا مخالفا للسنة، بعد أن ثبت ان النبي، ﷺ أقرّ الحبشة على اللعب في مسجده بالحراب.

وليس لأحد أن ينكر على المعتّدة عدة وفاة، اذا خرجت للاستفتاء، بعد أن ثبت أن «فريعة بنت مالك» خرجت بعد وفاة زوجها تستأذن رسول الله ﷺ في موضع العدة، فقال لها «امكثي حتى تنقضي عدتك»، ولم يتعرض لخروجها بانكار.

ويتصل ببحث السنة مسألتان دقيقتان جرى فيهما اختلاف العلماء:

* **المسألة الأولى**: ما يقوم به الدليل على أنه سنة، ثم يتهاون فيه الناس، ولا يحتفظ به الا فريق عرفوا باسم المبتدعة من ناحية اعتقاد أو عمل. وقد ذهب بعض الفقهاء الى ترك هذه السُّنة احتراسا من التشبه بالمبتدعة، وضرب المثل لهذا بتسطيح القبور، أي بنائها بدون شواهد، والحق أن محافظة بعض المبتدعة على سنة حتى تصير شعارا لهم، لا يخرجها عن حقيقة السنة، ولا يزال خطاب الاقتداء بالنبي ﷺ فيها متوجها الى أولئك الذين تركوا السنة حتى يعودوا اليها.

* **المسألة الثانية**: ما يخشى من فعله اعتقاد العامة لوجوبه، فقد راعى بعض الأئمة مفسدة اعتقاد العامة لوجوب ما هو مندوب اليه، كما ذهب الامام مالك الى كراهة صوم ستة أيام من شوال، مع صحة الحديث الوارد في فضله، خشية أن يعتقد العامة وجوبها. ونص الحديث: «من صام رمضان، ثم أعقبه بست من شوال فكأنه صام الدهر كله». قال ابو اسحاق الشاطبي: «والذي خشي منه مالك وقع في العجم، فصاروا يتركون المسحِّرين على عاداتهم. والبوَّاقين» وكذلك قال أبو اسحاق المروزي، وهو من أصحاب الامام الشافعي، لا أحب أن يداوم الامام على مثل أن يقرأ كل يوم جمعة بسورة الجمعة، لئلا يعتقد العامة وجوبه.

وجمهور العلماء لا يقيمون للخوف من العامة وزنا، والتبعة في مثل هذا على أهل العلم، اذ هم المطالبون بتعليم الناس آداب دينهم، وهدايتهم الى سبيل ربهم. ولننظر ما صنع الفاروق عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، حين قبل الحجر الأسود، وقال: «اني لأعلم أنك لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله، ﷺ، يقبلك ما قبلتك»[٦]. فقد جمع بين الأخذ بالسنة، ودفع ما عساه يخطر في أذهان العامة من اعتقاد فاسد.

البــدعَــة

أما البدعة، فمعناها اللغوي، الأمر المحدث على غير مثال، محمودا كان الأمر أو مذموما. وقد وردت البدعة في لسان الشارع، وذهب الفقهاء في الحديث عنها مذهبين:

المذهب الأول: مذهب من يتوسع في معناها، فيحملها على ما أحدث بعد عهد النبوة، سواء أكان راجعا الى العبادات أم المعاملات، وسواء أكان حسنا أم قبيحا. قال الامام الشافعي: «المحدثات من الأمور ضربان: أحدهما: ما أحدث يخالف كتابا أو سنة أو أثرا أو اجماعا، فهذه البدعة الضلالة، وثانيهما: ما أحدث من الخير، وهذه محدثة غير مذمومة.

وعلى هذه الطريقة قسم عز الدين بن عبد السلام البدعة الى :

* واجبة: كوضع علم العربية وتعليمه.
* مندوبة: كاقامة المدارس.
* مكروهة : كتزويق المساجد.
* محرمة: كتلحين القرآن بحيث تتغير ألفاظه عن الوضع العربي.
* مباحة: كوضع الأطعمة على الموائد ألوانا.

المذهب الثاني: مذهب من يفسر البدعة بالطريقة المخترعة، على أنها من الدين، وليست من الدين في شيء، فهي مذمومة في كل حال، ولا يدخل في حقيقتها واجب، أو مندوب، أو مباح، وعلى هذا المعنى ورد قوله، ﷺ، «وكل بدعة ضلالة». وهذا ما يريده الامام مالك في قوله: «من ابتدع في الاسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمدا ﷺ خان الرسالة». لأن الله تعالى يقول: «**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي**».

وأصحاب هذه الطريقة يحملون قول عمر بن الخطاب، في صلاة التراويح : «نعمت البدعة هذه» على معنى البدعة في اللغة. كما أن أصحاب الطريقة الأولى، يذهبون في قوله، ﷺ، : «وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة» الى أن المراد من المحدثة والبدعة.. نوع خاص من المحدثات والبدع، وهو ما كان مخالفا للكتاب والسنة. والابتداع كما نص عليه العلماء:

* اما احداث أمر في الدين غير مشروع من أصله، كصلاة الرغائب في رجب، وصلاة ليلة عاشوراء.
* واما زيادة أمر مشروع، كالذكر يقرن بالرقص في حركات متطابقة.
* واما نقص من المشروع، كالذكر باسم مفرد في رأي من يعدّه بدعة، نظرا لأن الوارد انما هو ذكر الله بلفظ مركب مفيد.
* واما تحويل المشروع عن موضعه، كتقديم خطبة العيد على صلاته.

ويدخل في البدع أمور عدة منها:

* كل عمل استند صاحبه في ابتداعه الى حديث موضوع، كالرقص في حال الذكر.
* ترك المأذون فيه على وجه التدوين، وتسمى البدعة التركية. وقد سدّت الشريعة الطريق دون هذه البدعة، اذ هم قوم أن يقعوا في خطيئتها، فقال تعالى: «**يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحلّ الله لكم**».

ولم تعدم هذه البدعة، بعد نزول هذه الآية، أناسا يتعلقون بها، ويحسبون أنهم يتقربون الى الله بالتزامها، وانما انحدروا اليها من طريق الزهد، وللزهد مواطن لا يدخل ترك الطيبات في حدودها. دعي «الحسن البصري» الى طعام ومعه أصحابه و«فرقد السبخي». فقعدوا على المائدة وعليها ألوان من الدجاج المسمن والفالوذج وغير ذلك، فاعتزل «فرقد» ناحية ولم يأكل، فسأل الحسن: أهو صائم؟ قالوا: لا ، ولكنه يكره هذه الألوان، فأقبل الحسن البصري عليه وقال: يا فرقد! أترى لعاب النحل بلباب البر، بخالص السمن.. يعيبه مسلم؟

(٦) رواه البخاري.

ومن البدع التي يلبسها بعض المتصوفة بدعوى الزهد، أثواب يصنعونها من قطع مختلفة تسمى «المرقعات». قال القاضي أبو بكر ابن العربي — في كتاب المعارضة: «ان الثوب اذا خلق منه جزء كان طرح جميعه من الكبر والمباهاة والتكاثر في الدنيا، واذا رقّعه كان بعكس ذلك كله. ورقّع الخلفاء ثيابهم». والحديث مشهور عن عمر، وذلك شعار الصالحين، وسنّة المتقين — حتى اتخذه الصوفية شعارا، فجعلته في الجديد، وانشاء مرقعة من أصلها.

وهذا ليس سنة، بل هو بدعة كبيرة، داخل في باب الرياء، وانما المقصود بالترقيع استدامة الانتفاع بالثوب على هيئة البلى.

ومن أقبح البدع — ما يوضع موضع السنة، كالاستخارة بنحو المصحف والمسبحة — بدل الاستخارة الواردة في السنة، التي هي صلاة ركعتين بالفاتحة وسورتي «الكافرون» و«الاخلاص»، ثم الدعاء اللهم اني أستخيرك بعلمك.. الخ. ولو قال انسان لآخر عند الملاقاة: «صباح الخير أو أسعد الله صباحكم» مثلا، في موضع السلام عليكم، لعدّ صنيعه هذا من قبيل وضع المحدث مكان السنة.

بيد أن الفرق بين هذا المثال وما تقدمه — أن الاستخارة بنحو المصحف والمسبحة، ممنوعة في نفسها. قال القاضي أبو بكر بن العربي، في كتاب الأحكام، بعد أن تكلم على التعرض للغيب: فان قيل: فهل يجوز طلب ذلك في المصحف؟ قلنا: لا يجوز، فانه لم يتبين المصحف ليعلم به الغيب، وانما بينت آياته، ورسمت كلماته ليمنع عن الغيب، فلا تشتغلوا به، ولا يتعرض أحدكم له. وأما نحو «أسعد الله صباحكم» فانما ينكر حيث يوضع موضع تحية الاسلام، فلو أضيف الى التحية الاسلامية، لم يكن في اضافته اليها من بأس.

ومن البدع أيضا — ما يفعله بعض الناس، بدل الأذان، ثم الدعاء: «اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمدا الفضيلة والوسيلة والدرجة العالية الرفيعة، وابعثه اللهم المقام المحمود الذي وعدته، انك لا تخلف الميعاد».. وهما الأمران الثابتان في الصحيح — أن يقول الشخص: مرحبا بحبيبي وقرة عيني محمد بن عبدالله ﷺ ثم يقبّل ابهاميه، ويجعلها على عينيه. ولا نعلم لهذا الذي يفعلونه من سند يوثق به حتى يصح أن يقام مقام سنة ثابتة.

ومن شر البدع ما يفعل أيضا بدعوى القربة، ويكون في الواقع مثيرا للأهواء، مبعدا للنفوس عن التقوى، كهذه الأشعار التي توصف فيها الخمور والغواني، ولا يتحاشى فيها عن ذكر العشق والهجر والوصال، والعيون والثغور والرضاب، ويتغنى بها في المجامع والمحافل بزعم أنها كنايات أو اشارات لها تعلق بالحضرة الالهية أو النبوية.

ومن البدع التي جاء الاسلام ليقتلعها من منبتها: أعمال يبنيها أصحابها على زعم أنها من الجن، وليس بينها وبين هذه الوقاية من صلة، كذبح حيوان، أو صنع طعام، باعتقاد أنه يجلب رضاهم، ويكون سببا لدفع ضرر يتوهم أنه يجيء من ناحيتهم. وذكر لابن شهاب.. أن ابراهيم بن هشام المخزومي أجرى عينا، فقال له بعض المهندسين عند ظهور الماء: لو أهرقت عليها دما كان أحرى أن لا تغيض ولا تفور فتقتل من يعمل فيها، فنحر جزائر حتى جرى الماء مختلطا بالدم وأمر فصنع له ولأصحابه منه طعام، فقال ابن شهاب: «أما بلغه أن النبي، ﷺ، نهى أن يذبح للجن»؟

ومن المهم أن نذكر أنه لا يدخل في البدعة ما يفتي به البالغ درجة الاجتهاد وان خالف الجمهور، وانما هو رأي مرجوح وآخر راجح الا أن تكون الفتوى مخالفة للنص الجلي من القرآن أو السنة، أو القواعد القاطعة، أو الاجماع، فان الفتوى تكون حينئذ زلة، لا يصح البقاء عليها أو المتابعة فيها. والشاهد على أن الأعمال التي تسند الى آراء اجتهادية ولو كانت مرجوحة لا تسمى بدعة: أن الأئمة المجتهدين يرون أقوال مخالفيهم بالنسبة الى أقوالهم مرجوحة، ولا ينسبونهم الى ضلال، ولا ينكرون على من يقتدي بهم في المذهب. واجماعهم على أن حكم الحاكم يرفع الخلاف — شاهد على أن المجتهد لا يرى أن العمل بقول مخالفه بدعة، ولو كان في نظره بدعة لما أفتى باقراره — وهو يعلم «أن كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار». فلا نسمي الصلاة لغير الخسوف والكسوف — كالزلزلة، والريح الشديدة — بدعة وضلالة، وصاحبها مبتدعا ضالا، لأنها مشروعة عند بعض الأئمة، وان كانت أدلتهم — فيما نرى — واهية مرجوحة.

نقول هذا تحذيرا من قوم لم يدرسوا أصول الدين، ولم يتعرفوا مقاصد الشريعة، ولمجرد ما يتلون آية أو حديثا، ويبدو لهم — وهم أشباه العامة — أن ما يقوله الامام فلان، أو الأئمة الأربعة، مخالف للآية أو الحديث، يعجلون الى الانكار، ولا يبالون أن يسموا العمل على ما ظهر لهم من أنه مخالف لنص الكتاب أو السنة بدعة، وصاحبها مبتدعا.

واذا كان في أشباه العامة من يقرأ الحديث في صحيح البخاري أو مسلم مثلا، ولا يحسن أن يتفقه فيه على مقتضى أصول الشريعة، فيخف الى الطعن في مذاهب الأئمة حتى ينبذها بلقب البدعة.. فان في المستضعفين من أهل العلم من يعمد الى أعمال يبتدعها العامة، مخالفة للنصوص الجلية، أو القواعد القطعية، فيتطلب لها مخرجا يبتغي بها مرضاتهم.. «والله ورسوله أحق أن يرضوه».

ومن المهم أن نعرف: أن ترك السنة لا يستدعي فعل بدعة — الا أن تترك السنة على اعتقاد أن خير الدين في تركها، فيكون من قبيل البدعة التركية، كمن يترك الصلاة في جماعة — بدعوى أن صلاته في حال انفراده أجمع للقلب وأدعى للخشوع.

أما من ترك السنة لغرض دنيوي، فلا يسمى لمجرد تركه السنة مبتدعا. من ذلك مثلا.. ما اعتاده الناس من ترك تشميت الرؤساء، أي الدعاء لهم بعد العطاس، مهابة لهم، ولو حمدوا الله تعالى بعد العطاس. «عطس الخليفة المأمون مرة في محضر جماعة، فلم يشمته أحد بقوله «يرحمكم الله»، فقال لهم: لماذا لم تشمتوني؟ فقالوا: هبناك، فقال: لا خير في مهابة تحرمني من رحمة الله. وانما أمات هذه السنة في مجالس الرؤساء استنكاف بعضهم من الرد على من يشمتهم، وما كان لهم أن يستنكفوا.

واذا كانت البدع تشوه وجه الدين الحنيف، فضلا عما تجره من المفاسد العظيمة والمآثم.. فمن الواجب على العلماء أن يحاربوها بما استطاعوا، وعلى أولي الأمر أن يشدوا أزرهم في تغييرها □

دور الجامعات في التنمية

بقلم : د. محمد بن عبدالله البرعي / جامعة البترول والمعادن الظهران



الجامعة هي معهد للتعليم العالي والاختصاص يضم عددا من الكليات والأقسام المتخصصة. لذا فهي منشأة أو مؤسسة متعددة الأغراض، تسهم بأبحاثها في حل المشكلات البيئية والاجتماعية والاقتصادية، وتحمل مشعل الحركة الفكرية التجديدية في كل زمان ومكان بالاضافة الى كونها المصنع الذي يعد الطاقات البشرية من شباب الأمة رجالا ونساء ويؤهلهم لخدمة المجتمع والنهوض به. وفي هذا الاسهام دور فعال ومتميز في تحقيق أهداف التنمية على المدى القصير والطويل.

والمقصود بالتنمية هنا هو النوعية الملموسة في تحسين وسائل العيش لرفاهية المواطنين، وهي تختلف عن النمو لأن الأخير يعني زيادة دخل المجتمع. وأهمية التنمية في العالم، تعود الى الستينات من هذا القرن عندما قررت الأمم المتحدة اختيار السنوات ١٩٦٠ حتى ١٩٦٩ بمثابة العقد الأول للتنمية، والسنوات ١٩٧٠ حتى ١٩٧٩ بمثابة العقد الثاني للتنمية. ومهما قيل ويقال في تعريف التنمية وأهدافها الا أن الهدف المتفق عليه للتنمية هو أولا وأخيرا الانسان نفسه.. فالانسان هو الذي يدير عجلة التنمية وهو المستفيد الأول منها.. فالتنمية تهدف الى صقل قدراته وتنمية مواهبه واخصاب خياله وتغيير مفاهيمه في سياق التقدم والرقي.

ان العملية التنموية في حقيقتها انما هي أكبر من كونها مجرد عملية انشاءات مادية واستيراد مظاهر التكنولوجيا ونقل التقنية بحذافيرها من بيئة الى أخرى.. انها في حقيقة الأمر اتجاهات وقيم وتعديل سلوك وخلق مهارات وانشاء وعي وادراك، وهي عملية تملك أسباب التقدم والقدرة على ارساء نظم وتوطين ابداع.

والتنمية لها مفهوم عالمي أصبح يستخدم على نطاق واسع. فحسب تعريف خبراء الأمم المتحدة في تقرير للّجنة التحضيرية لمؤتمر الأمم المتحدة للعلوم والتكنولوجيا من أجل التنمية جاء قولهم:

«ان المسلَّم به عموما هو أن التنمية ليست مرادفة لمجرد النمو ولكنها تتضمن اعتبارات أخرى عديدة تتعلق أساسا برفاهية الانسان، ومن هذه الاعتبارات ما هو ثقافي وما هو مادي». فمن هذا التعريف وما سبقه نجد أن الهدف من التنمية ينصب على العنصر البشري في مجتمع ما، فالانسان هو صانع التنمية والمستفيد الأول منها.

طالما أن الثقافة هي أحد الاعتبارات التي ترتكز عليها عملية التنمية ولذلك فليس بغريب أن يجد المرء تناسبا طبيعيا وايجابيا بين عدد الجامعات في دولة ما، ومركز هذه الدولة على ميزان التنمية.. فكلما كثرت الجامعات والمراكز العلمية والمعاهد العليا، ازدادت قدرات المجتمع وارتفع ترتيب الدولة على سلم التنمية في كافة المجالات.. ودور الجامعات في مسيرة التنمية يتلخص في المجالات التالية:

• **الخريجون**: تسهم الجامعة في تخريج الكفاءات الشابة من أبناء الوطن رجالا ونساء في شتى مجالات المعرفة من هندسة وطب وعلوم وادارة واقتصاد وأدب ولغة ورياضيات وغيرها. فالجامعة هي مصنع تلك العناصر الوطنية تعدهم لتطبيق ما تعلموه نظريا على صعيد الواقع العملي. فعلى سبيل المثال، احتفلت جامعة الملك سعود في رمضان ١٤٠٣هـ بتخريج ١٣٣٣ جامعيا في شتى مجالات المعرفة وذلك للفصل الدراسي الثاني فقط، عدا فصل الصيف ومن تخرج قبلهم في الفصل الدراسي الأول ١٤٠٢هـ/ ١٤٠٣هـ.

وفي جامعة البترول والمعادن، تخرج في الفصل الدراسي الثاني في الفترة نفسها ١٧٩ طالبا، منهم ١٥٣ حصلوا على درجة البكالوريوس في العلوم والهندسة و٢٦ طالبا على درجة الماجستير، ويتوقع أن يتخرج في فصل الصيف القادم ٨٥ طالبا، ١٠ في الدراسات العليا والباقون بدرجة بكالوريوس علوم وهندسة.

وقس على ذلك بقية جامعات المملكة السبع مع اختلاف في اعداد الخريجين وتخصصاتهم، الا أنهم كلهم أو معظمهم يدخل المعترك العملي ليسهموا بنصيبهم في مجال التنمية في شتى الفروع.

• **خدمة المجتمع**: تسهم الجامعة في خدمة المجتمع، وهو مطلب تنموي على قدر كبير من الأهمية، واسهامها هذا يتم عن طريق معاهد البحوث ومراكز خدمة المجتمع، وبرامج التطوير الاداري. والمحاضرات العامة، وعقد الندوات والدورات والمؤتمرات العلمية القيمة وغير ذلك مما يساعد المجتمع على ادراكه لمسيرة التنمية الشاملة ومن ثم المشاركة في هذه المسيرة كل حسب جهوده وميوله وتخصصاته.

• **معاهد البحوث**: تسهم الجامعة في مسيرة التنمية وذلك عن طريق معاهد البحوث والمعاهد العلمية الملحقة بها والتي تقدم كافة الاستشارات والتوصيات للوزارات والدوائر

الحكومية والشركات الخاصة التي تقوم بتنفيذ فعلي لعمليات وبرامج التنمية وتترجمها الى واقع عملي ملموس. هذا بالاضافة الى تطوير دراسات ابداعية وعلمية متقدمة يمكن الاستعانة بها في مسيرة التنمية التي يجب أن تقوم على أسس علمية مدروسة.

• الأبحاث والدراسات: تسهم الجامعة أيضا في التنمية وذلك عن طريق الأبحاث والدراسات والاكتشافات العلمية التي يتوصل اليها أعضاء هيئة التدريس والباحثون والمفكرون في شتى مجالات المعرفة وبخاصة ما يتصل منها بالعلوم البحتة عملية كانت أو هندسية أو طبية.. الخ.

• الخبراء: الجامعة هي الصرح التعليمي العالي الذي تدور فيه اللقاءات والندوات وتبادل المعلومات بين الخبراء كل في مجال تخصصه، وبين أولئك الذين يأتون من خارج البلاد وداخلها لمناقشة قضايا المجتمع ومتطلبات التنمية والتوصل الى حلول جذرية مبنية على الطرق العلمية الصحيحة، ومن ثم تقديم اقتراحاتهم وتوصياتهم الى المسئولين في الدولة لتأخذ طريقها نحو التنفيذ والتطبيق.

• نشر الكتب والمقالات العلمية: تسهم الكتب والمقالات والبحوث التي ينشرها أساتذة الجامعة، في شتى مجالات التنمية وقد تكون هذه المعطيات، الاطار النظري لمسيرة التنمية بل هي في الحقيقة النواة الأولى، والقالب النظري الذي يصنع اللبنة الأولى وحجر الأساس في العملية التنموية، اذ بدون الاطار النظري لا يمكن تصور تنمية فعالة ومفيدة.

• الاستشارات: من بين المجالات التي تسهم بها الجامعة في التنمية، تقديم الاستشارات الفردية والجماعية للمؤسسات العامة والخاصة والدوائر الحكومية كل في مجال تخصصه. وهذه الاستشارات هي بمثابة محرك يدفع عملية التنمية في الاتجاه الصحيح ويصحح اتجاه المسار فيما اذا انحرف هذا المسار عن الأهداف المرسومة. وقد تكون الاستشارات بشكل فردي، أو بشكل جماعي.

• اللجان المتعددة الأغراض: من الأدوار الهامة التي تضطلع بها الجامعة في التنمية تكوين اللجان المختلفة والمتعددة الأغراض، وهذه اللجان تساعد في دفع مسيرة التنمية عن طريق الانتاج الفكري. فعلى سبيل المثال هنالك لجنة باسم «لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر» بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض، تقوم بنشر الكتب والمؤلفات المفيدة التي يمكن الاستفادة منها في مجالات التنمية وخاصة الكتب المتعلقة بالتراث الاسلامي.

• برامج الدراسات العليا: تتبنى الجامعات مثل هذه البرامج لتمنح من خلالها درجات الماجستير والدكتوراه في شتى الحقول. فهناك مثلا برنامج الماجستير في ادارة الأعمال بجامعة البترول والمعادن الذي يخدم الشباب العاملين في الشركات والمؤسسات المجاورة والذين قد حصلوا على درجات البكالوريوس. فهذا البرنامج يهدف الى تنمية المهارات الادارية لدى منسوبيه، وتنمية هذه المهارات جزء لا يتجزأ من أهداف التنمية في المملكة.

• وأخيرا وليس آخرا، فان الجامعة تسهم في عملية التنمية وذلك لكونها مصدرا يمد الدولة بالكفاءات العالية والمتخصصة في شتى المجالات. وهناك وزراء ووكلاء وزارات ممن كانوا أعضاء في هيئات التدريس في جامعات المملكة، يشرفون اليوم من واقع عملهم على مسيرة التنمية ويحاولون تطبيق النظريات على صعيد الواقع الملموس معتمدين في ذلك على خبراتهم التعليمية التي اكتسبوها من الجامعات التي عملوا لديها.

وفي صيف عام (١٤٠٣هـ)، تقدم حوالي ٢,٥ مليون طالب وطالبة لتأدية الامتحانات النهائية في مراحل التعليم الابتدائي والمتوسط والثانوي. وهذا العدد من الطلاب والطالبات يعتبر عددا ضخما اذا ما أخذنا بعين الاعتبار حداثة التعليم النظامي في مدارسنا، والذي يبلغ عمره ثلاثين عاما فقط. وغني عن القول بأن هذه الأعداد الكبيرة تكوّن النواة الأولى لمد الجامعات بالطلاب.

وقد دلت الاحصاءات الحديثة على أن هناك ما لا يقل عن ٢٠٠٠ مواطن سعودي وسعودية ممن يحملون مؤهل الدكتوراه في مختلف التخصصات، ومعظم هؤلاء يعملون في جامعات المملكة السبع بالاضافة الى القطاعات العامة والخاصة.

وبالاضافة الى الجامعات السبع ترعى المملكة العديد من الكليات مثل كلية الملك عبد العزيز الحربية، وكلية قوى الأمن الداخلي وكلية الملك فيصل الجوية، بالاضافة الى ست كليات متوسطة وثلاثة مراكز للعلوم والرياضيات تابعة لوزارة المعارف.

وتقدم جامعات المملكة حوالي ٦٠ تخصصا في كافة العلوم والمعرفة، وتمنح بموجبها درجات البكالوريوس، والماجستير والدكتوراه من قبل نحو ٣٠ كلية مختلفة. كما دلت الاحصاءات على أن هناك ما يزيد على (٤٠٠٠) شاب وشابة ممن يحملون مؤهل الماجستير في كثير من التخصصات بالاضافة الى ماجستير ادارة الأعمال، وادارة المستشفيات، والاحصاء، والتربية البدنية، وطب الأسنان، وهناك الدبلومات العليا والدبلومات الخاصة التي تعادل الماجستير.

ونستدل مما سبق على أن المملكة، ولله الحمد، يتوفر لديها أهم خامات التنمية، وهو العنصر البشري المثقف والمتعلم.. فهذا العنصر كفيل بأن يسهم في مسيرة التنمية اذا نحن أعددناه الاعداد الصحيح في الجامعات والمعاهد العلمية الأخرى □

المصادر:

ابراهيم عباس نتو، «أفكار تربوية». الكتاب العربي السعودي جدة: تهامة ١٤٠١هـ

سهير السبكي «دور الصحافة في عملية التنمية»، جريدة الرياض العدد ٥٤٥٨ بتاريخ ١٤٠٣/٨/١٤هـ ص/٥

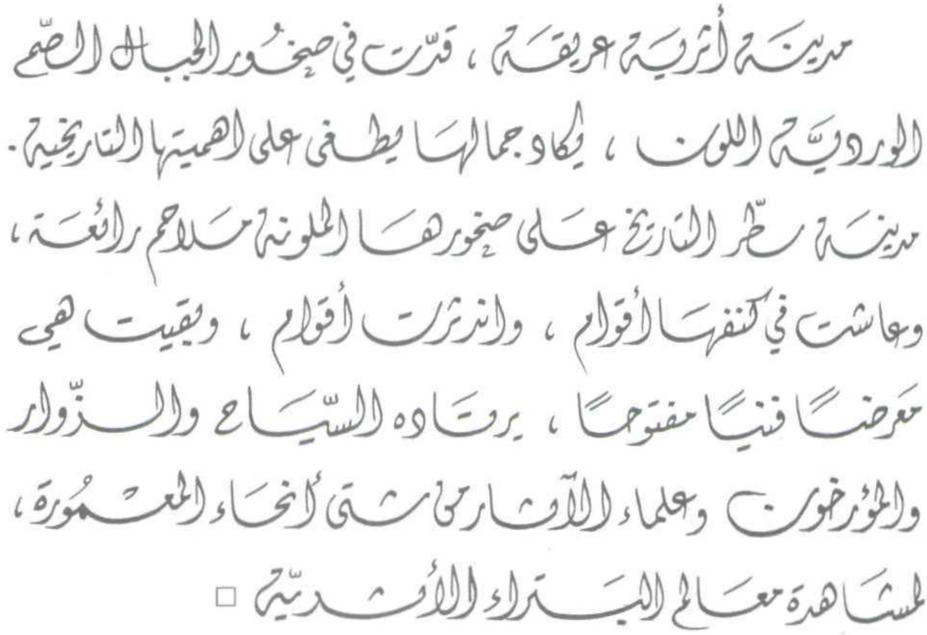
سفر محمود محمد — «التنمية قضية» الكتاب العربي السعودي جدة: تهامة ١٤٠٠هـ.

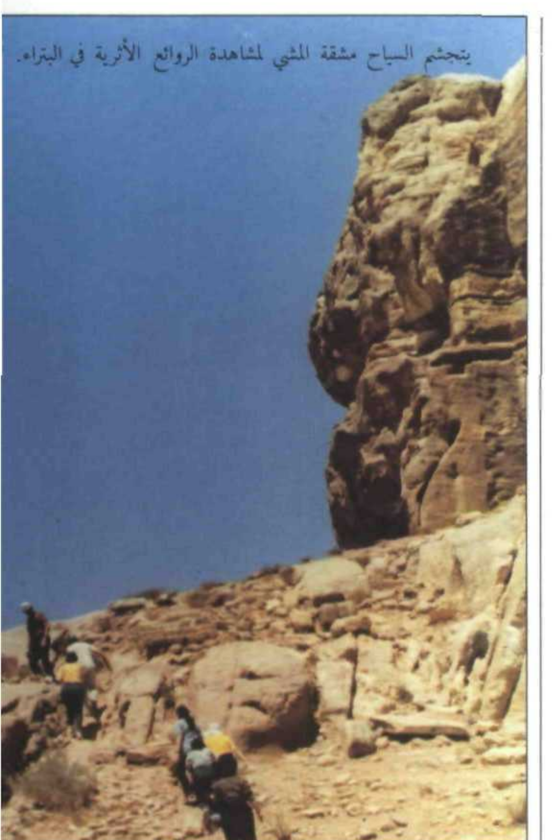
جولـة "القـافـلـة" في الأردن :

البتراء أعجوبة وردية حمراء عمرها نصف عمر الزمان.

بقلم : سليمان نصر الله / هيئة التحرير

البتراء.. تحفة أثريّة رائعة الجمال

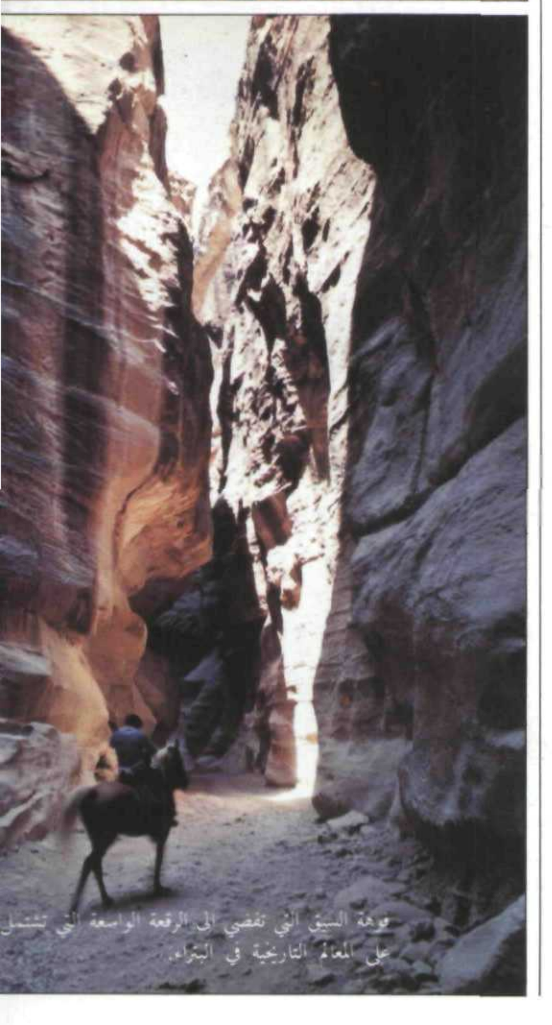

مدينة أثرية عريقة، قدّت في صخور الجبال الصمّ الوردية اللون، يكاد جمالها يطغى على أهميتها التاريخية. مدينة سطّر التاريخ على صخورها الملونة ملاحم رائعة، وعاشت في كنفها أقوام، واندثرت أقوام، وبقيت هي معرضاً فنياً مفتوحاً، يرتاده السيّاح والزوّار والمؤرخون وعلماء الآثار من شتى أنحاء المعمورة، لمشاهدة معالم البتراء الأثرية □

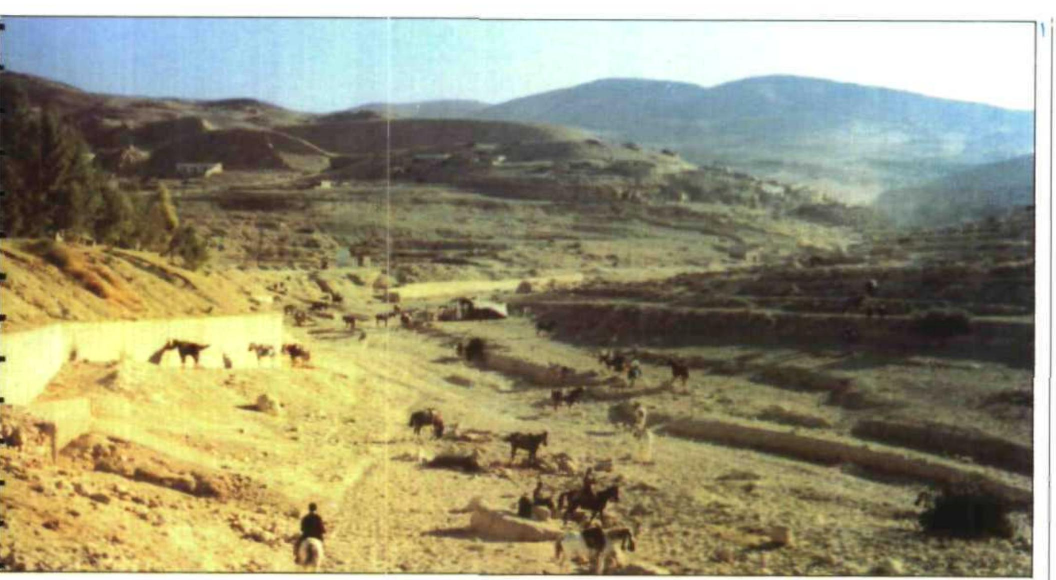

يتجشم السياح مشقة المشي لمشاهدة الروائع الأثرية في البتراء.

حظيت البتراء، بما لم تحظ به أية مدينة أثرية أخرى، من اهتمام كبير من قبل علماء الآثار والمؤرخين والباحثين والرحالين، منذ أن زارها لأول مرة الرحالة السويسري «بيركهاردت — Burckhardt »، بعد أن لفها النسيان، وظلت معزولة عن العالم الخارجي ردحا طويلا من الزمن. وقد ألفت عنها الكتب العديدة، وأجريت عنها دراسات أثرية لا تحصى، ومع كل ذلك لا تزال تكمن فيها جاذبية دائمة غير عادية، تغري الكثيرين من المعنيين بالآثار، لاماطة اللثام عنها، والوقوف على ماضيها السحيق، وكشف المزيد عما تحتضنه أرضها من كنوز أثرية. فالبتراء من المناطق الأثرية العريقة التي أثارت، بغموضها وسحرها وجمالها، اهتمام العشرات من المؤرخين والباحثين والكتاب والشعراء، الذين جاؤوها من مختلف أنحاء العالم، ليشاهدوا هذا الأثر العريق، الذي يمثل قمة ما صنعته يد الانسان، وأروع ما تركته عصور التاريخ المتتالية. ومن بين هؤلاء الشاعر الانكليزي المشهور «دين بيرغن — Dean Burgon » الذي وصفها في قصيدة تعتبر من روائع الشعر العالمي يقول فيها:

أيها الانسان.. أنىّ لك الاتيان بمثل هذه المعجزة؟
انها تربض هناك.. في الشرق
اعجوبة وردية حمراء
عمرها نصف عمر الزمان
يخفق لها قلب الخيال
الا أن أجنحته تحترق دونها

لقد دفعتني الرغبة الى زيارة تلك البقعة من الأردن، لأشاهد مع غيري معالم البتراء. ومع خيوط الفجر الأولى انطلقت بنا الحافلة عبر الطريق الصحراوي الجديد، وتراءى لنا من الجهة اليسرى مبنى مطار الملكة علياء الدولي الحديث، وكنا قد قطعنا نحو ٤٠ كيلومترا. واستأنفنا الرحلة بين صعود وهبوط في منطقة جبلية كثيرة المنعطفات، الى أن بلغنا المنطقة الصحراوية المنبسطة. تتناثر بعض القرى على جانبي الطريق الصحراوي الذي يجري العمل حاليا على توسعته، باعتباره أحد الطرق الرئيسية في المملكة الأردنية، المؤدية الى ميناء العقبة، بوابة الأردن البحرية. وبعد زهاء ساعتين ونصف الساعة، بدت لنا الى اليمين لوحة كتب عليها «البتراء»، وخرج السائق عن

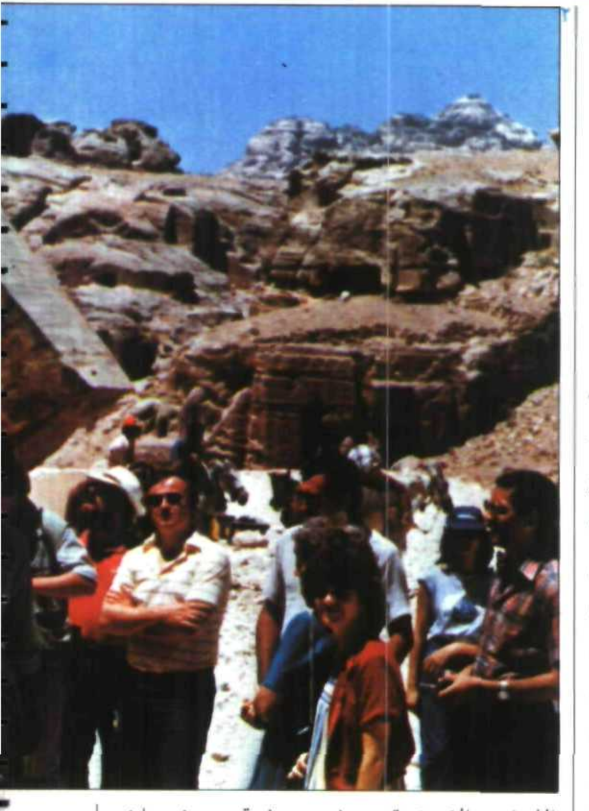

فوهة السيق التي تفضي الى الرقعة الواسعة التي تشتمل على المعالم التاريخية في البتراء.





الطريق الرئيسي وانحرف يمينا على طريق معبد. وراحت طوبوغرافية المنطقة تختلف تدريجيا، من سهول الى تلال الى هضاب الى جبال، كما أخذت الأرض تكتسي بالخضرة شيئا فشيئا، حتى وصلنا بعد نصف ساعة الى قرية وادي موسى ذات كروم العنب والتين. وهي مشهورة بينبوعها الفياض الذي يطلق عليه «عين موسى»، وهي في المكان الذي يعتقد أن النبي موسى، عليه السلام، ضرب فيه بعصاه فتفجر منه الماء. ثم راح الطريق ينحدر شيئا فشيئا، وما هي الا دقائق معدودة حتى توقفت الحافلة بنا أمام مبنى جميل هو الاستراحة السياحية، التابعة لوزارة السياحة والآثار. نزلنا من الحافلة واسترحنا قليلا في الاستراحة، وشاهدنا بعض اللُّقى الأثرية المعروضة، ثم توجهنا حيث تنتظرنا الخيول المعدة للسياح.

لقد أصبحنا على أبواب البتراء عاصمة العرب الأنباط، بل على مدخلها الرئيسي المعروف بالسيق، ذلك الممر الضيق، المحفوف بالجبال الشامخة، الذي يؤدي الى قلب البتراء، ويبلغ طوله حوالي كيلومترين، ويتراوح عرضه بين ثلاثة أمتار واثني عشر مترا. ويستطيع السائح أن يقطع السيق سيرا على الأقدام أو ممتطيا صهوة جواد. أما من بلغ به العمر عتيا أو خاف ركوب الخيل، فان موظفي الاستراحة السياحية ينقلونه في سيارة جيب خاصة، ليوفروا لمثله مشاهدة أجمل لوحة فنية ابدعتها يد الخالق سبحانه وتعالى، وأروع تحفة معمارية صنعها الانسان. وراحت الخيول تتمخطر بنا في السِّيق المتعرج بين اطواد شاهقة، تتسامق بمهابة نحو عنان السماء، وتزدان بتشكيلات صخرية تتمازج فيها الألوان بشكل أخاذ، بين أحمر وأزرق وأبيض وأصفر وأسود ووردي وأرجواني. ويضيق السيق في كثير من الأماكن، وترتفع الصخور الى علو شاهق، وتقترب من بعضها البعض حتى لتخالها تتهامس وتتناجى، ويعتريك شيء من الارتياب عندما تحتجب السماء، اذ تحسب أن تلك الجلاميد ستهوي عليك، فتغمض عينيك وجلا، ثم لا تنفك أن تستفيق في نهاية السيق لتجد نفسك واقفا أمام أثر تذكاري ضخم، تداعب الشمس صخوره الوردية، فتنعكس عليها الأشعة بشتى الألوان، انه «الخزنة» أروع آثار البتراء واحدى عجائب النحت، انها تقف شاهدا على ما بلغه الأنباط من الرقي العمراني والهندسي والفني. وترجلنا استعدادا للقيام بجولة بين معالم البتراء سيرا على الأقدام، رافقنا فيها دليل من ادارة السياحة والآثار، ملم بتاريخ المنطقة وآثارها وما أجري فيها من حفريات حديثة.



قبسات من تاريخ صانعي البتراء

لا بد لنا ونحن نزور البتراء، من الحديث عن صانعيها العرب الأنباط، الذين ترتبط البتراء بهم. فقد ظهروا على مسرح التاريخ لأول مرة في القرن السادس قبل الميلاد كقبيلة عربية في شمال الجزيرة، عاشت على رعي المواشي. واختلط الأنباط بقبائل ثمود ولحيان التي استقرت في شمالي شبه الجزيرة العربية في المنطقة المعروفة اليوم بالعلا، حيث توجد «مدائن صالح» توأم البتراء في المملكة العربية السعودية. ثم نزح الأنباط شمالا وانتشروا في صحراء الأردن، ووصل قسم منهم الى منطقة البتراء في وادي موسى، وتعايشوا مع الأدوميين واستقروا في قراهم ومدنهم، واشتغلوا برعي الماشية في بادئ الأمر، ثم لم يلبثوا أن تحولوا الى الزراعة. ولم يمض بهم طويل وقت حتى راحوا يتعاطون التجارة على نطاق واسع، ساعدهم على ذلك موقع المنطقة الجغرافي بين مصر وفلسطين وشبه الجزيرة العربية والعراق وسوريا. فتحسنت أحوالهم، وعظم شأنهم، وفرضوا سلطانهم على طرق القوافل الرئيسية، فكانت مدينتهم البتراء مصب الثروات الضخمة، وغدت تفوق مدن حلف الديكابوليس جمالا وبهاء. فكانت قوافل الأنباط تجوب الصحراء، حاملة الذهب والفضة والحجارة الكريمة والتوابل والأخشاب الثمينة من بلاد فارس وجنوب شبه الجزيرة العربية، والبخور والعطور والمر من حضرموت، فازداد الأنباط ثراء انعكس على معالم عاصمتهم ابتراء.

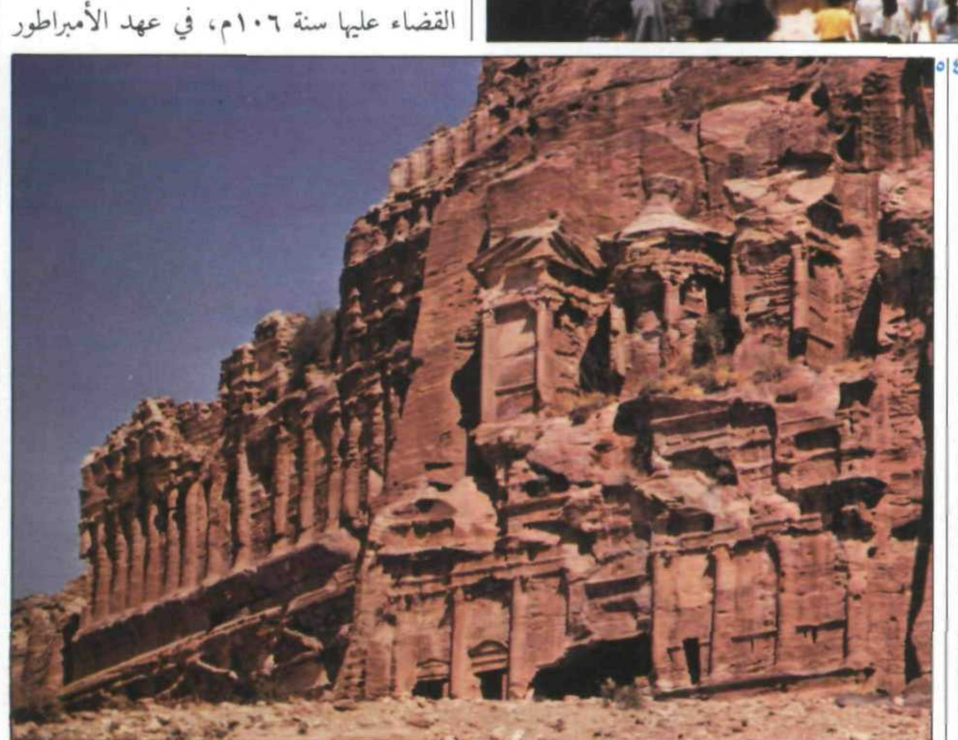
لقد أغرى ثراء البتراء العديد من الدول المعاصرة للأنباط. الا أن موقعها الحصين كان عونا للأنباط على دحر أعدائهم والطامعين

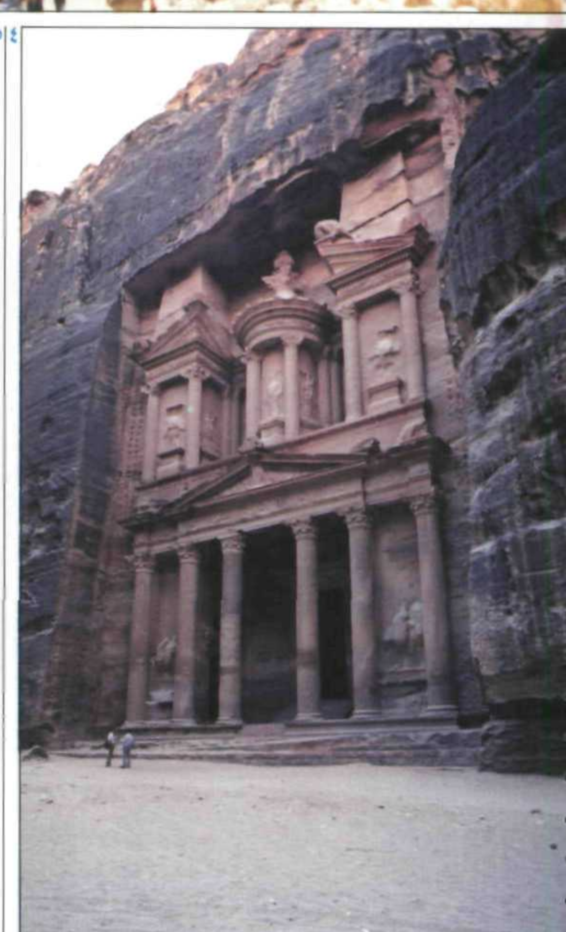
فيهم. انهم نحتوا مساكنهم وقصورهم ومدافنهم في قلب الصخر الرملي. وكانت مدينتهم محاطة بجبال شاهقة يتعذر الوصول اليها الا من الممر الضيق في الناحية الشمالية المعروف حاليا بالسيق، وهو الممر الذي يغذي المدينة بالمياه.

لقد حاول «انتيغونس»، أحد خلفاء الاسكندر المقدوني، الاستيلاء على البتراء سنة ٣١٢ ق.م. الا أن الأنباط ردوه على أعقابه خاسرا. كما انتصر عبيدة الأول، ملك الأنباط سنة ٩٠ ق.م. على «الكسندر جانيوس» في معركة دامية وقعت على مقربة من شاطىء بحيرة طبريا الشرقي. وفي سنة ٨٧ق.م. حاول «انطيوخس» الثاني عشر القضاء على مملكة الأنباط، فتصدى له الملك رئبال الأول فقضى عليه وشتت جيشه. واتسعت مملكة الأنباط اتساعا كبيرا، فامتدت من دمشق شمالا حتى وادي أم القرى جنوبا، ومن بادية الشام شرقا حتى خليج السويس غربا. وهذا ما جعل الرومان يتطلعون اليها بحذر شديد، وراحوا يجندون لها الحملة تلو الحملة حتى استطاعوا القضاء عليها سنة ١٠٦م، في عهد الأمبراطور

٣

٥ ٤





١ — وادي موسى الذي يزود مدينة البتراء بالماء.

٢ — دليل من وزارة السياحة والآثار الأردنية يشرح لمجموعة من السياح جانبا من تاريخ البتراء.

٣ — المساكن والمدافن والقصور في البتراء تمثل قمة ما صنعته يد الانسان.

٤ — الخزنة أثر تذكاري ضخم يتألف من طابقين بني أساسا ليكون هيكلا ومدفنا.

٥ — قصر البنت المزدان بالنقوش البديعة والزخارف الجصية. وهو يطل على بوابة «تيمينوس».

«تراجان»، حينما بدأ الضعف يدب في دولة الأنباط بتحول طرق التجارة البرية عن البتراء. وفي كنف البتراء بنى الرومان مدينة خاصة بهم تكاد تكون مستقلة عن مدينة الأنباط، لا تزال معالمها قائمة تحكي قصة هذه المدينة الأسطورة. ثم لم تلبث البتراء أن خضعت لحكم البيزنطيين فترة من الزمن حتى وصلتها جيوش الفتح الاسلامي سنة ٦٣٦م، وعم الاسلام المنطقة. وتعرضت البتراء للحملات الصليبية في القرن الثاني عشر، وبنى فيها الصليبيون قلعة حصينة. بعد ذلك لم يعد للبتراء ذكر، ولفها النسيان في غياهبه، الى أن اكتشفها من جديد الرحالة السويسري «بيركهاردت»، وسلط عليها الأضواء، كمدينة أثرية لعبت على مسرح التاريخ دورا بارزا.

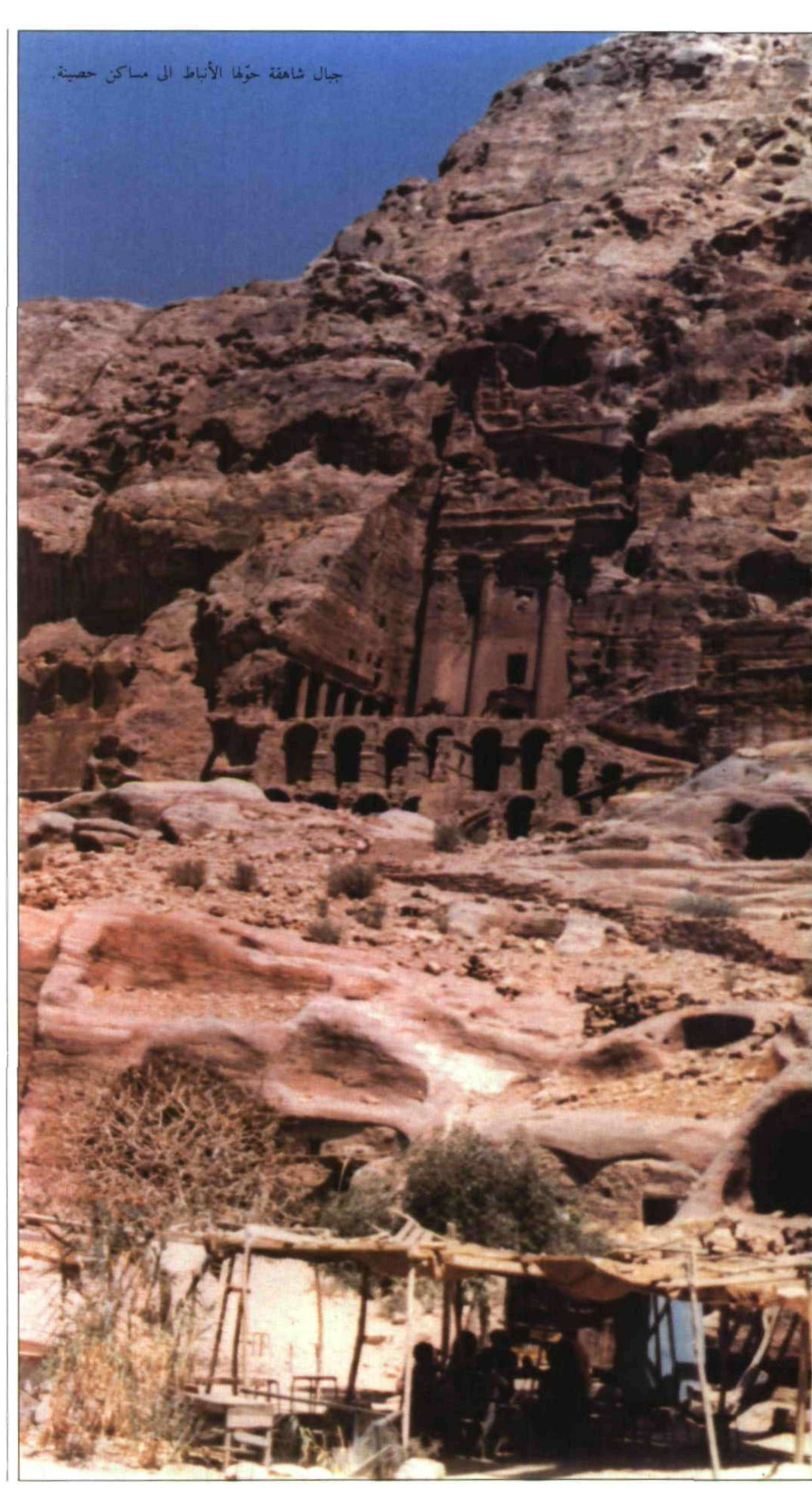
وهبت الطبيعة البتراء موقعًا حصينًا

كل من يزور البتراء يدرك فورا ما تتمتع به من موقع استراتيجي حصين، اختاره الأنباط ليكون معقلا منيعا لهم. وكانت وفرة المياه في هذه المنطقة سببا في أن تكون هذه المنطقة من أقدم المناطق السكنية التي احتضنت الانسان الأول. فقد دلت الحفريات الأثرية التي أجريت مؤخرا في الكهوف المتناثرة في سفوح «البيضاء» أنها آوت انسان العصر الحجري. وفي القرن الثالث عشر قبل الميلاد كانت تدعى «سَلْع» أي مدينة الصخر في منطقة الأدوميين الذين منعوا الاسرائيليين بقيادة النبي موسى، عليه السلام، من عبورها الى أرض كنعان. وقد اشتهرت البتراء باسم «سَلْع» في الأدب الجاهلي، وهذا ما جعل ياقوت الحموي في معجمه يقول معرفا بها: سَلْع حصن بوادي موسى، عليه السلام، بقرب بيت المقدس. وهذا الشاعر فؤاد الخطيب يصف البتراء بقصيدة عصماء يقول فيها:

هي «سَلْع» والبتراء ترجمة اسمها
نسجت عليه عناكب الاهمال

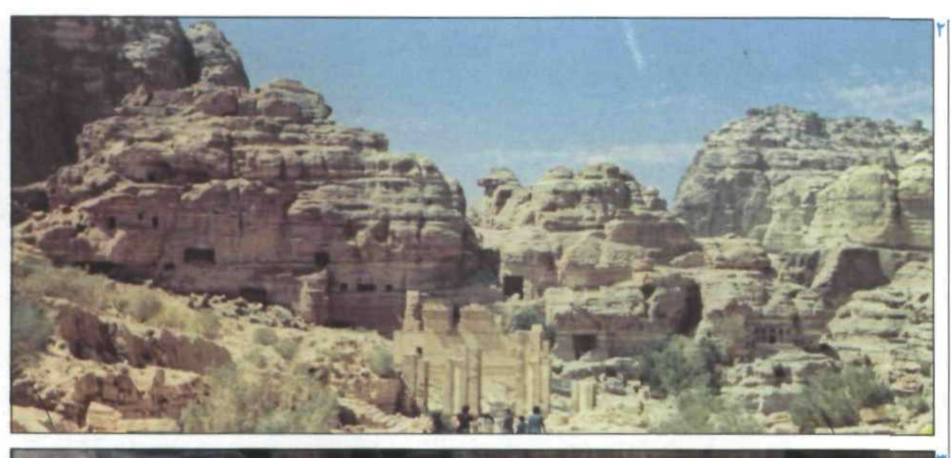
الى أن يقول:

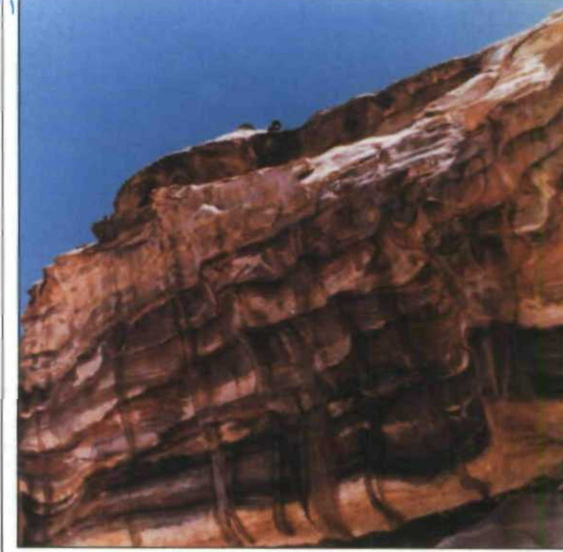
وشهدت فيه مدينة منحوتة
في الصخر نحت مشيد التمثال



جبال شاهقة حوّلها الأنباط الى مساكن حصينة.

موصولة حجراتها بفنائها
نقرا على عمد لهن، طوال
وكأن ساطع نقشها وطلائها
لهب توهج، لا بريق صقال
والقصر نحو القصر ينظر شامخا
نظر المدله، مؤذنا بزيال
بلد كأن يدا دحته، فخرّ من
قلل الجبل ممزق الأوصال
فهنا الصخور على الصخور تحطمت
وهناك منه حقيقة كخيال





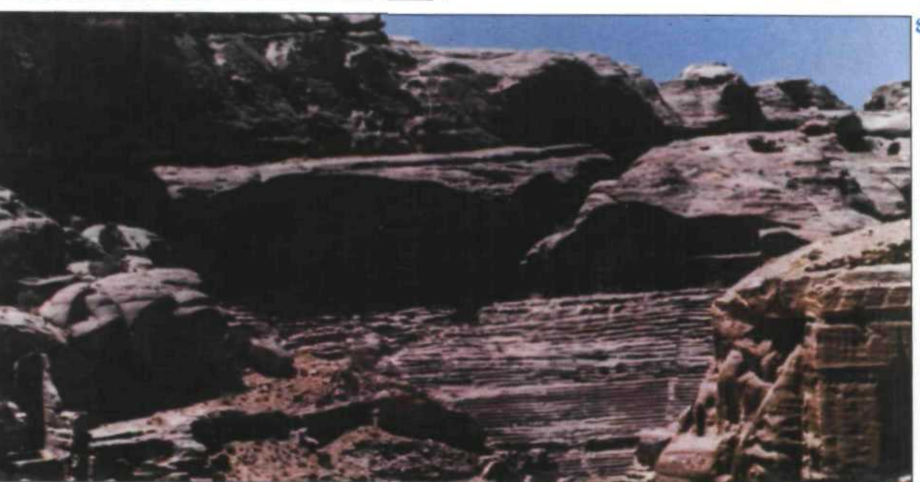


١ ـ هذه الصخور بألوانها الأخاذة أثارت اهتمام واعجاب المؤرخين والكتاب والشعراء.

٢ ـ يقصد البتراء أعداد كبيرة من السياح لمشاهدة معرض فني أثري.

٣ ـ عبثت يد الحدثان بالمدرج الروماني في البتراء فتداعت أجزاء من معالمه التاريخية.

٤ ـ المدرج الروماني في البتراء.



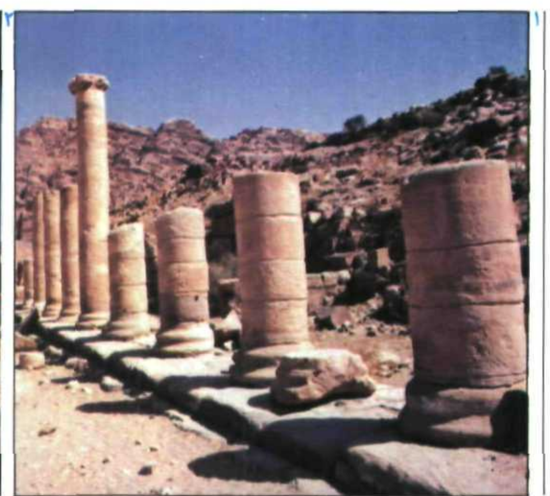
لقد تعرضت منطقة البتراء للزلازل في فترة من تاريخها فتقوض بعض معالمها الأثرية. وتقوم وزارة السياحة والآثار الأردنية حاليا بترميم جانب من تلك المعالم الأثرية. كما تشهد منطقة البتراء نشاطا أثريا ملحوظا، اذ تقوم بعض البعثات الأثرية الوطنية والأجنبية، باجراء حفريات في مناطق مختلفة تحت اشراف دائرة الآثار. ويتولى علماء الآثار قراءة النقوش الابيجرافية التي يعثر عليها في المنطقة، ودراسة قطع الفخار التي وجد شيء كثير منها في «أم البيارة» موطن الأدوميين.

جولـــة بين أطـــلال البـــتراء

يعيش المرء في كنف معالم البتراء في جو رائع ممتع، اذ ينقلك الدليل من صرح الى آخر، وأنت بين هذا وذاك، تقف مشدوها أمام عظمة الفن العمراني والهندسي الذي بلغه الأنباط والرومان. ان يوما واحدا لا يكفي لمشاهدة ما تحتضنه منطقة البتراء من معالم أثرية.

ان أول ما يشاهده الزائر من معالم البتراء «الخزنة» القائمة في نهاية السيق. أما التسمية

١



٢



٣

فهي حديثة، لاعتقاد سكان المنطقة الحاليين خطأ أن فرعون وضع كنوزه في الجرة الموجودة في الطابق الثاني لتكون بمنأى عن أيدي الطامعين. ويعتقد كثير من علماء الآثار أن هذا الأثر التذكاري بني ليكون هيكلا أو مدفنا. وهو يتألف من طابقين، تزدان الواجهة الأمامية للطابق السفلي بستة أعمدة مصقولة ذات تيجان كورنثية، نقش فوقها رسم لأبي الهول، ورسم لأسد وفهد، ورسم لرجل حافي القدمين يقود جملا، ورسم لحيّة تحاول لدغ رجل في قلبه. أما الطابق العلوي فيتكون من ثلاث شرفات، تحتضن الوسطى منها الجرة، وفوقها تمثال للآلهة «ايزيس»، كما نشاهد نقشا لمجموعة من «الأمازونات» وهن نساء مقاتلات، يرتدين ثيابا قصيرة، شاهرات سلاحهن من الفؤوس فوق رؤوسهن، بالاضافة الى رسومات الثمار والزهور. واذا واصلنا السير غربا نمر بعدد من الكهوف، التي كانت تستخدم مقابر لملوك الأنباط، الى أن نصل الى المدرج الروماني، الذي يتسع لثلاثة آلاف متفرج، موزعين على أربعة وثلاثين صفا من المقاعد الحجرية المحفورة في الصخر. ونواصل السير ليشير الدليل الى ضريح الجرة أو ما يسمى بالمحكمة. وقد بني هذا الضريح فوق أقبية تضم غرفا ذات أقواس رومانية. ويشتمل على قاعة محفورة في صخر معرّق بخطوط بيض وخضر وحمر وصفر. ثم تنفرج الجبال المحيطة فجأة ويتسع حوض الوادي، وهنا كانت تقوم متاجر المدينة وحماماتها وقصورها ومعابدها وهياكلها. ونسير في شارع مبلط تحف به أعمدة كثيرة هو شارع

١ — هوت تيجان هذه الأعمدة الضخمة من جراء الهزات الارضية وعوامل الطبيعة القاسية.

٢ — صورة فريدة التقطها المصور بعدسة «عين السمكة» لجانب من معالم البتراء الأثرية.

٣ — دلت الحفريات على أن البتراء من أقدم المناطق السكنية التي احتضنت الانسان الأول.

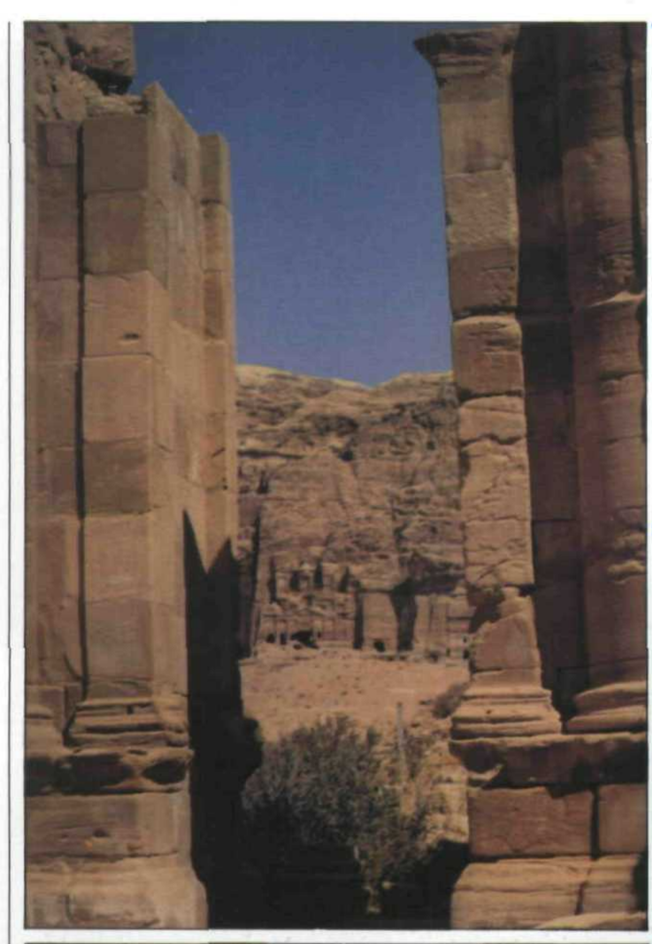
٤ — ادارة السياحة والآثار الأردنية توفر سيارة لنقل بعض السياح المسنين لتمكينهم من مشاهدة روائع البتراء.

٥ — البقايا الأثرية لبوابة «تيمينوس» حيث الأعمدة تقوم على قواعد مربعة.

٦ — معالم أثرية لا تزال قائمة منذ آلاف السنين تتحدى عوامل الطبيعة.

٧ — تتعانق الصخور الشاهقة المحيطة بالسيق لتحجب نور الشمس.

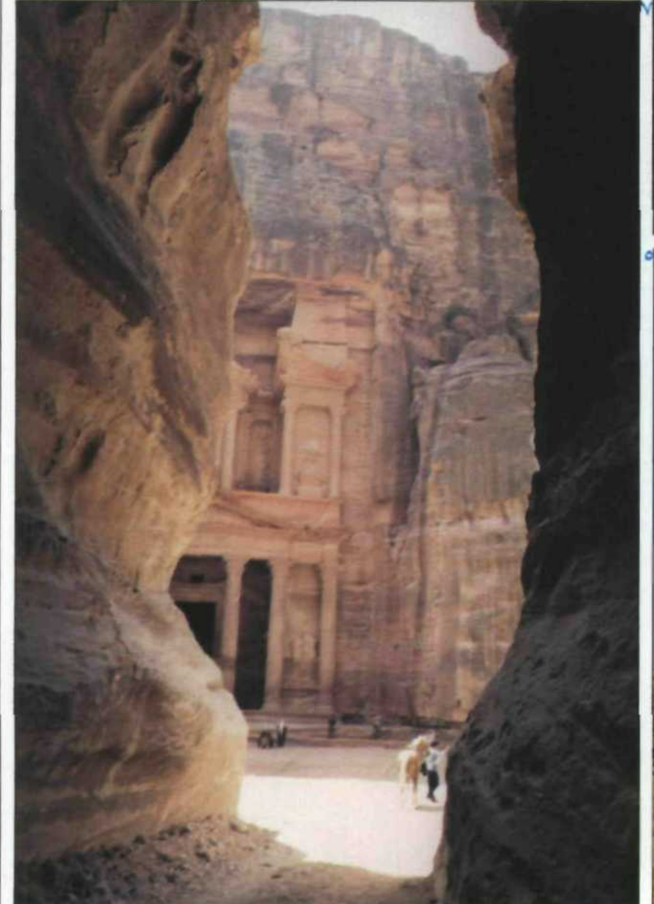
٦



٤

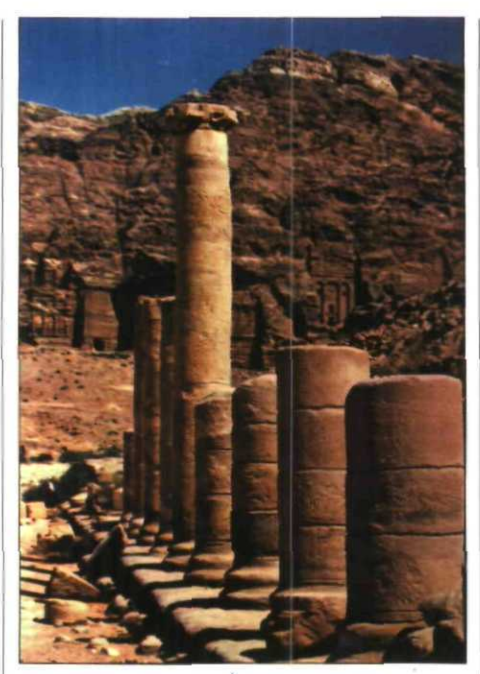


٧



٥

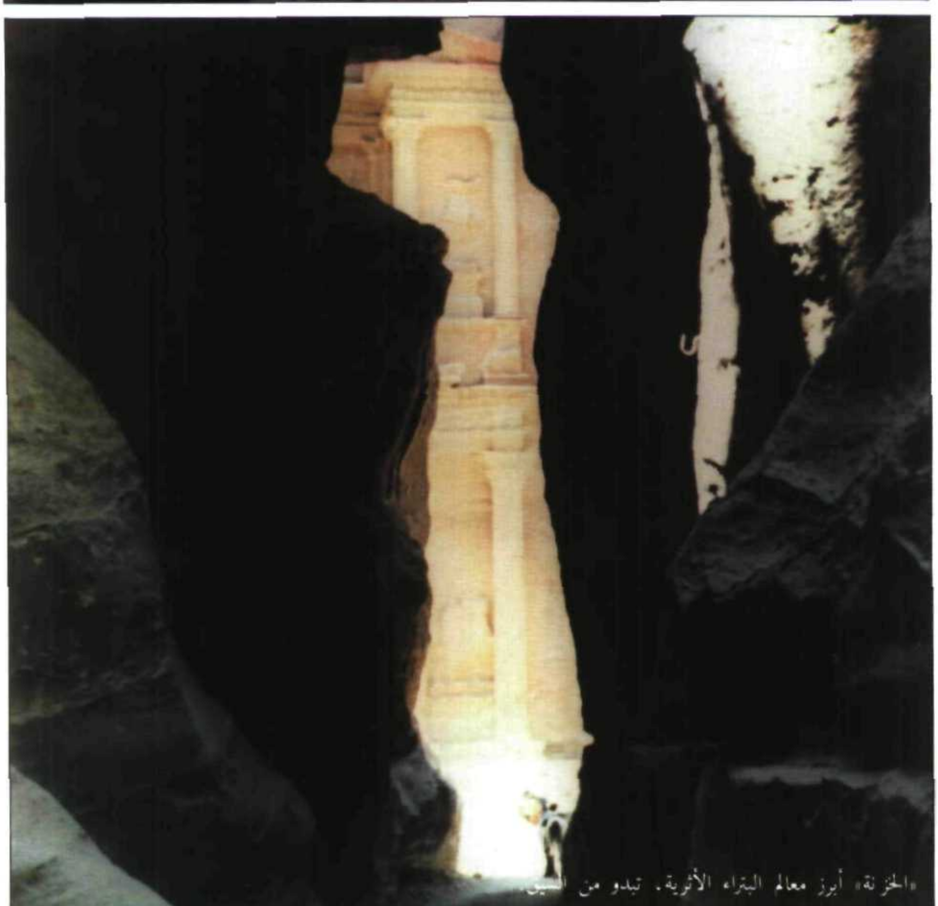




جانب من شارع الأعمدة في البتراء.



كان اختيار الأنباط لموقع البتراء عبر هذا الممر الضيق دليلا على كفاءتهم وبعد نظرهم.



«الخزنة» أبرز معالم البتراء الأثرية، تبدو من السيق.

الأعمدة الذي ينتهي بقوس النصر. ونشاهد الى اليسار هيكلا بناه الأنباط، بيزنطي الطراز، ذلك هو «قصر البنت» الشبيه بقصر البنت الذي شاهدته في «مدائن صالح» بالمملكة العربية السعودية. ثم لا نلبث أن نتجه الى جبل يرتفع نحو ٥٠٠ متر عن الوادي، يقوم على قمته مبنى ضخم يعرف بالدير، ويمكن الوصول اليه عبر سلسلة من الأدراج المنحوتة في الصخر. ويعتبر الدير أضخم آثار البتراء، اذ يبلغ عرض واجهته الأمامية خمسين مترا وارتفاعها خمسة وأربعين مترا، وتقوم على ثمانية أعمدة تعلوها الشرفات والتيجان. ويطل السائح من هذا الدير على وادي عربة وجبال فلسطين، وسيناء.

تلك هي أبرز المعالم الأثرية في البتراء.. المدينة الوردية الحمراء التي يناهز عمرها نصف عمر الزمان، بيد أن هناك أماكن أثرية عديدة تستحق المشاهدة كالحبيس، والوعيرة، وأم البيارة، والصبرة، والبارد، والبيضاء، وغيرها ☐

مراجع البحث:

«الأردن.. تاريخ وحضارة آثار» للأستاذ أ. لويس مخلوف

"Petra" Iain Browning

تصوير:

بيني سسبيديس

سليمان نصرالله

ايلين دن



أحزان

للراحل : أحمد محمد أبو شلباية / الرياض

ربّاه كيفَ طغتْ بالقلبِ أنّاتي ... وكيفَ ضاعتْ على الدنيا ابتساماتي
البدرُ يشرقُ في الآفاقِ مبتسما ... وقد تفردْتُ وحْدي في دجنّاتي
أريد أنسى شجوني وهْيَ حاضرتي ... ان دارَ كأسٌ لها ثنّت بكاسات
وأسألُ الليلَ هل للفجرِ مرتقبٌ ... أم أنه ضلَّ في حزني وآهاتي
كـأنّ لـيلي بحرٌ عـزّ شاطئه ... على غريقٍ تناءى بين موجات

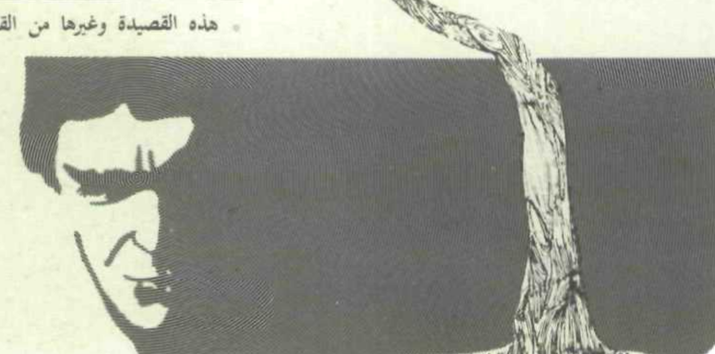
* * *

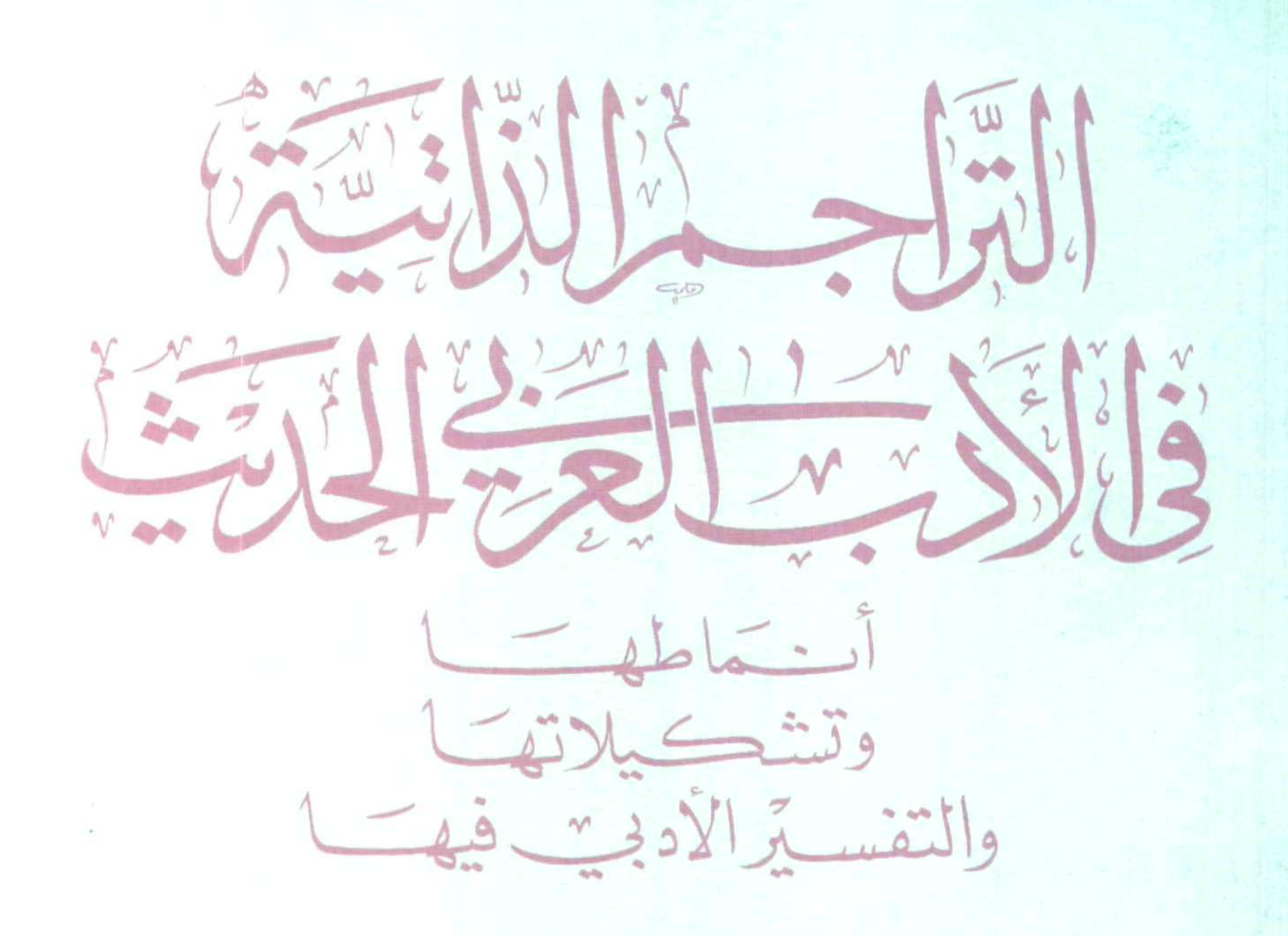
تصرّم الدهرُ لا أدرى أوائلَه ... من الأواخـر: ألوانٌ لمأسـاة
قد صاغها صورةً للحزنِ باكيةً ... فما بها مذ بَدت أضواءُ بسمات
والدهرُ ان ساء يوما سرَّ في غده ... لكنّ دهريَ شوكٌ بين روضات
أديرُ وجهي الى الماضي فيؤسِفُني ... أني حييتُ به في بُرد أموات
نثرتُ للودّ أزهارا فما التقِطت ... حتى ذوى العودُ فردا بين موماة
فكان عمري خريفاً في أوائله ... وفي الأواخـرِ أصـداءُ لأنّـات

* * *

مرّ الشبابُ يتيماً لا أنيسَ وقـد ... طويتُ برديه خلواً من مؤاخاة
صحائفٌ طُوِيت في وحشةٍ وقلـى ... فـكـيـفَ ابـسـمُ لـلماضي وللآتي
وزادني حسْرة مما ابتليتُ بـه ... هذا البعادُ الذي أرْبى معاناتي
فصرتُ وحديَ لا أهلٌ ولا ولـدٌ ... ولا سميرٌ سوى طِرسي ومِشكاتي
فهوّنِ الخطبَ يا ربّاهُ في بلد ... طرحتُ في ساحه ألوانَ علاتي
عسى الفؤادُ الذي طالَ السقامُ به ... يلقى الشفاءَ على أرضِ الرسالاتِ

• هذه القصيدة وغيرها من القصائد كان قد وافانا بها الشاعر قبل أن يوافيه الأجل المحتوم.





بقلم: الاستاذ: محمد أحمد العزب/ القاهرة

من أخصب مناطق العطاء في أدبنا العربي مناطق البوْح الذاتي.. بما هو انعكاس حقيقي.. لما يمور داخل الذات من التدلي — ونوازع التحليق — ولما يمكن أن يكون بحق حياة الكاتب الثانية.. أو قل حياته الحقيقية التي تضيء من الداخل بعناصر تكوينها الذاتي قبل أي اضافة وافدة من هنا.. أو من هناك.. لقد أعطى أدبنا العربي القديم في هذه المناطق أروع ما عنده ابداعا وتقييما.. حتى لقد تخطى هذا العطاء مناطق الأدب بما هو تشكيل فني الى مناطق التصوف.. ومناطق التاريخ.. ومناطق الفلسفة.. فرأينا فلاسفة كابن سينا وابن الهيثم.. وأدباء كالجاحظ وأبي حيان التوحيدي.. ومتصوفة كالغزالي وابن عربي.. يترجمون لأنفسهم تراجم ذاتية رائعة.. ربما كانت واحدة من الاضافات الثرية الخصبة الى هرم تفكيرنا العربي. الذي ما يزال حتى اليوم قادرا على الصمود والاشعاع — باذلا من اكتنازه الحقيقي بثرواته المبدعة ما يضيء لأجياله عبر كل السنين العجاف!!

ولكن همودا فكريا في هذا المجال من مجالات ابداع الذهنية العربية قد حدث بالفعل — فأجدب أدبنا العربي المعاصر أو كاد من التراجم الذاتية بمفهومها الحقيقي.. كأن احساسا غامضا بتميُّع الذات في هذه المرحلة يشل كل أقلام المبدعين. ويقعد بهم عن الطيران في هذا الأفق الذي ما يزال منفسحا لكل الأجنحة الشابة القادرة أساسا على بذل العناء في رحلة التحليق!!

ربما كانت هناك محاولات جادة على هذا الطريق.. ولكنها أبدا لا تساوي غزارة الكم المبدع في شتى المجالات.. واذا كان «الكم» لا يطاول اصالة «الكيف» في منطق الموضوعية العلمية، فان شعورا هاجسا بالقلق يتملك الغيور على منطق الابداع في لغتنا العربية.. لأن كل لغات العالم درجت في محاضنها الأولى على طريق البوْح الذاتي.. بما هي أداة لهذا البوح.. وتعبير صاعد عن هذه المسار.. فان خطرا حقيقيا يمكن أن يتهدد امكانية القدرة فيها على التعبير.. لأن اللغة التي لا يطوعها كاتبها للتعبير عن منازع الذات.. والانسياب في أدغالها المتكاثفة.. لا يمكن ولا لكاتبها جميعا أن يصلا الى شيء حقيقي في رحلة التعبير عن ذوات الآخرين.. حتى ولو كان هؤلاء الآخرون أنماطا موضوعية لا ذاتية.. أو شخوصا فكرية لم تتشيا في اطار من اللحم والدم.. ولكنها قافزة في المسافة القائمة بين الانسان والأشياء!!

التراجم الذاتية في الأدب العربي الحديث اذن ظاهرة ضامرة.. ولكنها ظاهرة على أية حال.. ولا يضير الظاهرة كثيرا أنها ضامرة الكم.. ما دام مضمونها الكيفي متحققا في الواقع التاريخي.. وقادرا مع ذلك كله على مواصلة الاشعاع!!

وبَدْءا لا أريد أن أزعم أن هذه الدراسة من نوع الدراسات الأكاديمية المتخصصة.. فان ذلك الجهد بحاجة الى مساحات زمنية ومكانية رحبة.. يتوافر فيها عديد من الشروط التاريخية.. والفكرية.. والموضوعية.. جميعا.. حتى يتأتى لها أن تحاول تأصيل هذا الفكر.. وترميم ما أحدث الزمن في جدرانه من صدوع.. ولكني فقط أستطيع أن أزعم أنها دراسة جادة.. كانت حصاد رحلة متأملة في كل ما أبدع أدباؤنا الكبار الذين يشاطروننا خبز هذا العصر.. أو الذين ألقوا الينا تحية الوداع منذ عديد من السنين..

ولكيلا نضل في متاهات التعميم.. فسأبدأ الرحلة بالقاء الضوء على أنماط التراجم الذاتية التي يدور في اطارها ما أبدع أدباؤنا المعاصرون.. ثم أتحدث عن تشكيلاتها الفنية التي حاول من خلالها أدباؤنا المعاصرون أن يقوموا برحلة البوح والافضاء!!

ان التصور الذي أواجه به موضوع التراجم الذاتية في الأدب العربي الحديث يمكن أن يرتكز أساسا على هذه المحاور الرئيسية:

الواقعية في التراجم الذاتية..

التجاوز في التراجم الذاتية..

التشكيل الفني في التراجم الذاتية..

وأخيرا.. التفسير الأدبي في التراجم الذاتية..

وقد كان من الطبيعي أن نبدأ هذه الدراسة بمحاولة التعرف الى «معنى» التراجم الذاتية — ثم على جذور التراجم الذاتية في أدبنا العربي.. أو لنقل في فكرنا العربي.. ثم على أكثر التراجم الذاتية الغربية ذيوعا.. لنصل عن طريق هذا التعرف الى تحديد للمنابع التي رفدت أدبنا الحديث بهذا اللون من ألوان العطاء الفني. ولنخلص بعد ذلك الى مواجهة الموضوع على مستوى من الفهم المحدد المضيء — ولكن ذلك كله قد يخرج بنا عن مجال الدراسة الموجزة التي تشير أكثر مما توضح.. وتومىء أكثر مما تعمق.. وتعطي اشارة البدء ولا تضرب في آفاق الانطلاق.

شيء آخر أحب أن أؤكده في مطالع هذه الكلمات.. هو أنني لا أواجه الموضوع بدراسة تطبيقية قدر ما أواجهه بدراسة تقييمية.. أي أنني لن أحاول عبر هذه الرحلة أن أسقط مفاهيم الناقد على موضوع العمل المنقود.. بمعنى أنني قد أرى مثلا في ترجمة العقاد الذاتية من خلال كتابه الرائع «أنا» منهجا «للتجاوز التحليلي» في التراجم الذاتية.. وقد اكتفى بمجرد أن أقول أن منهج العقاد كان منهج «التجاوز التحليلي» ولكنني لن استطرد الى التصدي لدراسة العناصر المكونة لهذا الحكم.. أو التدليل الموضوعي على صوابية هذا الاتجاه.. فان ذلك — كما قلت — مجاله الدراسة الأكاديمية المتخصصة التي تربط النتائج بالمقدمات.. والغايات بالوسائل.. والنهايات بالبدايات..

ولنبدأ الرحلة.. زادنا مزيد من الحب.. وحادينا مزيد من الاخلاص للكلمة الشجاعة التي تقودنا الى مناطق الضوء. والى مناطق البكارة في الخلق.. والابداع.. ولنتفق على مبدأ أنه من هنا.. من منطلق التراجم الذاتية في الأدب العربي.. يمكن لنا أن ندرس مراحل حياة العقلية العربية.. وأطوار نهوضها وجمودها.. ومدى انفساح آفاقها أو تلبد هذه الآفاق.. لأن هذا التعري النفسي من خلال التراجم الذاتية يتيح لنا قدرا من التعمق الحقيقي فيما وراء الظاهر المحَسّ الذي قد يخدع ببريقه الوامض.. أو يُعَمِّي بتسطيحه لمفاهيم الأشياء!!

نستطيع مثلا من خلال «أيام» طه حسين.. أن ندرس المجتمع المصري كله في هذه المرحلة.. التي شهدت مطالع طه حسين.. نستطيع أن ندرس المجتمع المصري من خلال «الأيام» بكل أبعاده وأعماقه.. بكل احباطاته واشراقه.. الجانب النفسي المكون للفرد والمجموع.. والجانب العقلي البازغ من قديمه والممزق في صراع مواكبة الجديد أو رفضه.. والجانب الاجتماعي الجانح أساسا الى احتضان تقاليده الموروثة.. والمتشوف في قلق الى ما يمور حوله من صراعات قيم تتخلق وقيم تموت.. الى آخر ما يمكن أن تعطينا التراجم الذاتية من ضوء كاشف يبدد غواشي الظلمات التي تكتنف تاريخنا القديم والحديث.. فان ذبذبة الذات الشاعرة الفنانة هي وحدها التي لا تخطىء في رصد ظواهر الأشياء.. أو قل في تعرية العوامل الخفية والبادية جميعا التي تكمن أساسا وراء ظواهر الأشياء.. ومهما يكن من شيء فان أدب التراجم الذاتية يشكل الى جوار كونه وثيقة تاريخية وفكرية واجتماعية.. وثيقة لأروع ما يبدع القلم من فكر.. لأروع ما يهب من عطاء!!

أنماط التراجم

أول ما يبدو هنا من هذه الأنماط نمط «الواقعية في التراجم الذاتية» وأعني بالواقعية ليس الانحياز الى مذهب أدبي بعينه ينضوي تحت لواء ما سمي بالواقعية الأدبية.. ولكنني أعني بها محاولة كاتب الترجمة الذاتية أن يعكس أطوار حياته فيها.. بكل ما تزخر به هذه الحياة بأطوارها المتغايرة من حوادث غائرة أو مسطحة.. ومن شخوص لقيهم الكاتب فتركوا بصماتهم على تفكيره الأدبي.. أو وعيه الاجتماعي أو انتمائه السياسي.. ومن أساتيذ تتلمذ عليهم.. أو تمرد على أساليبهم في الدرس.. أو زواج في لقائه بهم بين الرضا والسخط.. أو القناعة والتمرد.. فرضى عن جانب من جوانب تفكيرهم العلمي والفني.. ورفض من هذا التفكير العلمي والفني جوانب أخرى لم تستطع أن تلبي في نفسه حاجة التشوف الظامىء الى جديد.. ومن روافد فكرية شكلت ذاته الحيابية والفنية.. ربما عن طريق الممارسة والاحتكاك.. وربما عن طريق القراءة والتأمل.. وربما عن طريق الرحلة والارتياض.. ومن حب بازغ بناه أو دمّره.. ومن صراع خاضه الكاتب مع واقعه المتخلف الآجن.. أو مع تقاليد مجتمعه السائر الى الوراء..

مشاتِل المنطقَــة الشرقيَّــة بيـ

١



١ و ٢ نباتات وشجيرات مزهرة وضعت في أحواض خاصة في المشاتل.

ن الأمس واليوم

اعداد: يوسف خالد أبوبشيت / هيئة التحرير

٢



كان مجتمع المنطقة الشرقية قبل اكتشاف البترول مجتمعاً صغيراً يضم بين أرجائه فئات من صيادي الأسماك واللؤلؤ، والمزارعين، ورعاة الابل والماشية. وكان كل ما يتوخاه الفرد منهم آنذاك هو أن ينعم بحياة بسيطة يؤمن من خلالها قوته وقوت عياله اليومي، بأقل تكلفة ممكنة. لذلك، فقد كانت امكاناته المادية محدودة لدرجة أنها لم تسعفه في الانصراف بتفكيره إلى اقامة حديقة منزلية تجلب له ولأفراد عائلته البهجة والسرور. كما كان الصيادون والمزارعون والرعاة، آنذاك، يستغلون جزءاً من أفنية أوساحات منازلهم لاعداد أواصلاح أدوات حرفهم اليومية، أولتربية بعض أنواع الطيور والمواشي التي تؤمن لهم جزءاً من غذائهم اليومي. وقد كانت المناطق الخضر، في ذلك الوقت، تنتشر على أطراف المدن حيث كانت تنتج الخضراوات والفاكهة لتأمين احتياجات السكان الغذائية □

واليوم وبعد أن منّ الله على أهل هذه الأرض الطيبة بنعمة الثروة البترولية وتوفرت لهم بفضلها أسباب الراحة والرفاهية، وسبل العمل الكريم، أخذ أبناء الجيل الحاضر يتجهون الى اقامة الحدائق والجنائن حول بيوتهم وذلك ادراكا منهم لما تضفيه هذه الحدائق على منازلهم من جمال ونضارة،وما تبعثه في نفوسهم ونفوس أطفالهم من الراحة والاستجمام، فتنسيهم عناء يوم طويل من العمل أو الدراسة. فانتشرت الحدائق والجنائن المنزلية، وأخذ الناس يتفننون في تنسيقها، والعناية بها، حتى غدت سمة من سمات البيت الجميل، تقضي العائلة فيها أوقاتا طيبة، وتستمتع بجمال مناظرها وحسن بهائها، وتستنشق عبق أزهارها وشذى ورودها فتروح عن نفسها هموم العصر وغمومه. وتبعا لذلك فقد باتت الحاجة ملحة الى توفير مصادر كافية لاستنبات الأشجار والشتلات والفسائل والبذور، مما أتاح لمؤسسات المشاتل الخاصة بتجميل المناظر وتنسيق الحدائق، الظهور الى حيز الوجود.

مشاتل المنطقة الشرقية في الماضي

على الرغم من عدم توفر مراجع أو احصاءات تشير الى بداية مرحلة قيام المشاتل في المنطقة الشرقية، فانه يمكن القول بأن المشاتل بدأت قبل نحو ثلاثين أو أربعين سنة خلت، وذلك عندما بدأ بعض المزارعين في منطقة القطيف بجلب بعض الشجيرات الى «سوق الخميس» المعروف، لبيعها لفئة قليلة جدا من المهتمين بالزراعة، وربما كانت شجيرات الليمون البلدي، والترنج، والورد البلدي، واللوز، و«الكنار»، و«البمبر»، من أكثر أنواع الأشجار التي كان الناس يزرعونها في منازلهم في ذلك الوقت. وان صح هذا التعبير، فان ذلك مرده الى ملاءمة هذه الأشجار وتأقلمها مع ظروف المنطقة الجوية. وبالتدريج بدأ الناس يهتمون بأشجار الزينة بعد أن أدركوا فوائدها المتعددة، حيث قام بعضهم بانشاء مشاتل صغيرة جدا، هي باكورة المشاتل الكبيرة التي أخذت على عاتقها، انتاج أشجار الزينة المتنوعة بكميات كبيرة. وأرامكو، تشجيعا منها على انتشار مثل هذه المشاتل، فقد أخذت تقدم المساعدات والارشادات الفنية لعدد من المواطنين مكنتهم من انشاء أولى المشاتل في المنطقة، حتى أصبحت من المصادر الرئيسية

١


٢


٣


التي تعتمد عليها في اقامة المسطحات الخضر، وتشجير شوارع وطرقات أحياء السكن في مختلف مناطق أعمالها.

مشاتل المنطقة اليوم

نظرا لاتساع الرقعة السكنية في المنطقة الشرقية، وانتشار المشاريع الانمائية، واهتمام البلديات بزراعة وتشجير وتزيين الساحات العامة والشوارع الرئيسية ومداخل المدن، بالاضافة الى تزايد اقبال الناس على انشاء حدائق خاصة بهم، فقد باتت الحاجة ملحة لايجاد مصادر تفي باحتياجات السوق المتزايدة لمثل هذه المشاتل. وقد تطورت هذه الحاجة وتنامت لدرجة أنها أصبحت، فيما بعد، مهنة تجارية رائجة لها مهندسوها وفنيوها المختصون. ويوجد في المنطقة الشرقية حاليا زهاء سبعة وعشرين مشتلا، [1] منها قرابة عشرة مشاتل كبيرة نسبيا.

(١) حسب احصاءات فرع وزارة الزراعة والمياه في القطيف.

ولتعريف القارىء بهذه المشاتل ووقوفه على أنواعها وأنماطها، فقد قامت عدسة القافلة بجولة في عدد من المشاتل في المنطقة الشرقية، وستستعرض في هذه العجالة بعضا من هذه المشاتل:

مشتل سيهات

يعتبر هذا المشتل أول مؤسسة وطنية تجارية مارست أعمال زراعة وتربية أشجار الزينة في المنطقة الشرقية، مما أكسبها شهرة بين مستهلكي الأشجار في المنطقة منذ انشائها في عام ١٣٨٢هـ. وأثناء تجوالنا في المشتل التقينا بالسيد عبد الوهاب المعلم، صاحب المشتل ومؤسسه، ليحدثنا عن نشأة هذا المشتل فقال: «بعد أن تكرمت حكومتنا الرشيدة، والمتمثلة في وزارة الزراعة والمياه، بمنحي هذه الأرض، باشرت باعداد الموقع لاقامة المشتل عليه، وكانت البداية صعبة، الا أنه بتوفيق الله سبحانه وتعالى، ثم بفضل مساعدات أرامكو، وارشاداتها الفنية، استطعت، ولله الحمد، أن أقف بهذا المشروع وقفة جيدة مكنتني من تقديم خدمات كثيرة لعدد كبير من المؤسسات

٥



والهيئات الحكومية والأهلية والشركات الأخرى العاملة في المنطقة».

وليس من شك في أن انشاء مثل هذا النوع من المشاريع، قبل اثنتين وعشرين سنة، يعتبر شيئا مثيرا، وذلك نظرا لعدم وجود سوق رائجة لمثل هذا النوع من المشارع الزراعية. وفي هذا الصدد يقول السيد عبد الوهاب المعلم: «نشأت وترعرعت في بيئة زراعية فأحببت الشجرة وزراعتها، وعملت في أرامكو في عام ١٩٤٨ في وحدة تجميل وتنسيق الحدائق فاكتسبت خبرة ومرانا مكنانى من انشاء هذا المشتل».

ويضم مشتل سيهات، الذي يحتل مساحة مقدارها ٢٠ ألف متر مربع، حوالي ٥٥ ألف شجرة وشتلة متنوعة للزينة والثمر، يقوم برعايتها والاشراف عليها عشرون موظفا وعاملا مؤهلا.

مشتل أرامكو

حرصت أرامكو، كغيرها من المؤسسات، على تجميل المناظر وتنسيق الحدائق في مناطق أحيائها السكنية، وباحات مكاتبها عن طريق غرس الأشجار، وزرع الحشائش، من أجل توفير واضفاء مناخ جمالي في المناطق التي تعمل بها والترويح عن موظفيها العاملين لديها. ولذلك بدأت أرامكو في أوائل الخمسينات باقامة مشتل صغير خاص بها ضم أنواعا مختلفة من أشجار ونباتات الزينة المشتراة للأغراض الآنفة الذكر. وقد تبنت أرامكو في عام ١٩٦١ مشروعا تم بمقتضاه توزيع عدد من الأشجار على بيوت الموظفين الذين حصلوا عليها بموجب برنامج تملك البيوت، وذلك

١ — جانب من الشجيرات المزهرة التي يكثر وجودها في مشاتل المنطقة الشرقية.

٢ — أثبتت بعض أنواع أشجار الزينة المستوردة من مناطق معينة من العالم الى تربة المنطقة الشرقية، ملاءمتها وتأقلمها لمناخ المنطقة، كالنخلة الأمريكية غير المثمرة والتي تبدو في مقدمة الصورة.

٣ — تتخلل الأشجار أنواع جميلة من الورود التي تعكس النضرة والخضرة والجمال.

٤ — تهتم بعض المشاتل بزراعة الأشجار الصحراوية التي تستخدم في صد الرمال وايقاف زحفها الى المرافق الصناعية والسكنية.

٥ — تستخدم بعض مشاتل المنطقة مظلات خاصة لوقاية النباتات الصغيرة من تدني درجة الحرارة عند الفجر.

رغبة منها في تشجيع موظفيها السعوديين على الاهتمام بتشجير باحات منازلهم.

وفي السبعينات من هذا القرن، تزايد الطلب العالمي على استخدام أشجار ونباتات الزينة بشكل كبير، واشتد الاقبال على شراء الاشجار والشتلات من المشاتل المحلية مما ترتب عليه ارتفاع أسعار الأشجار ارتفاعا كبيرا. ومن جانب آخر، وضعت وزارة الزراعة والمياه بحكومة المملكة العربية السعودية شروطا خاصة لاستيراد النباتات والشتلات من خارج المملكة، وذلك للحيلولة دون انتقال أمراض نباتية الى التربة المحلية. وتبعا لهذه العوامل، قررت أرامكو منذ خمس سنوات تقريبا، توسعة مشتلها الخاص بها مراعية في ذلك الاهداف التالية:

* اجراء تجارب ودراسات متعددة على أنواع مختلفة من النباتات بغرض تحسين سلالتها لانتاج أصناف صالحة للنمو والتكاثر في المنطقة الشرقية.

* اتاحة الفرصة أمام مستهلكي الأشجار المحليين للحصول على أشجار ونباتات وشتلات مختلفة من السوق المحلية بأسعار معقولة.

* اعتبار هذا المشتل مركزا نموذجيا يوفر لأصحاب المشاتل المحلية فرصة الاطلاع على الأساليب الحديثة المتبعة في الري واستصلاح الأراضي.

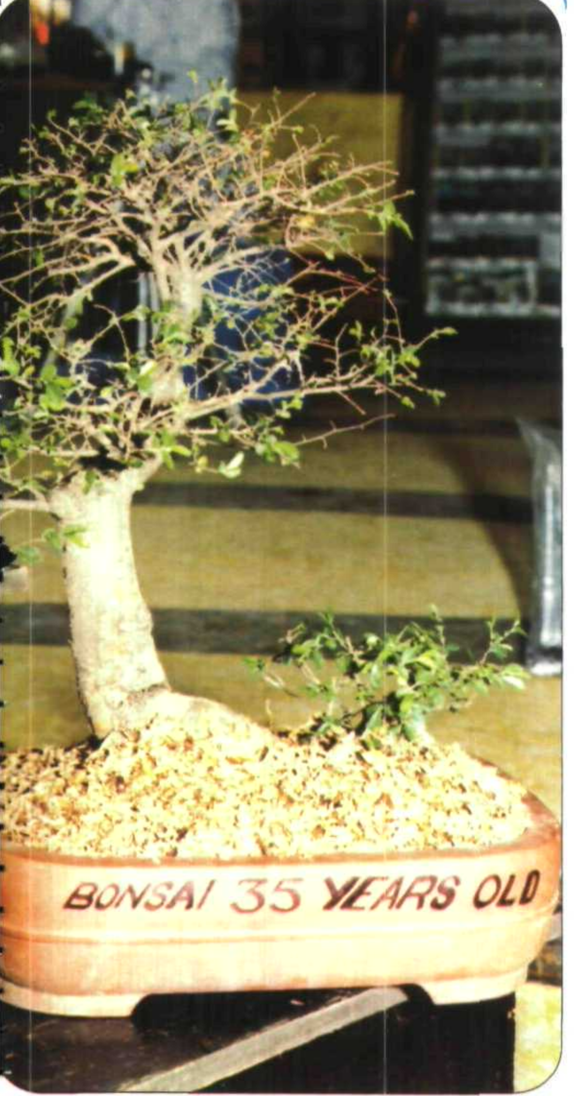
مشتل الميسة

لا بد لعابر طريق الدمام/الجبيل السريع من أن يشد انتباهه واجهة زجاجية كبيرة نسقت من خلفها، بشكل جميل وجذاب، مجموعة متنوعة من أشجار الزينة الداخلية.. ذلك هو معرض مشتل مؤسسة الميسة، الذي يتوفر فيه بالاضافة الى النباتات الداخلية، أصناف من البذور، وأدوات تقليم جذور وأوراق النباتات وأحواض الأشجار، ومبيدات مكافحة الحشائش الضارة والآفات والحشرات الزراعية. ولعل أول ما يسترعي نظر زائر هذا المعرض مجموعة أشجار يطلق عليها اسم «بونزاي — Bonsai » لا يزيد طول الواحدة منها على ٢٥ سنتيمترا ويتراوح عمرها ما بين عشر وخمس وثلاثين سنة. وهذه الأنواع من الأشجار تنحدر من أصل صيني، حيث يقوم الصينيون بتحجيمها وتقزيمها باستخدام أساليب خاصة لتبقى على شكل تحف في البيوت والمكاتب. ويتراوح سعر الواحدة من بعض هذه الأنواع ما بين ٨٥٠ و٢٥٠٠ ريال.

ويقع خلف المعرض مباشرة مشتل الميسة حيث تبلغ مساحته ٣٥ ألف متر مربع، ويضم نحو مائة وعشرين ألف شجرة وشتلة ونبتة، تسقى بالطرق التقليدية المعروفة. كما يحتوي المشتل على أماكن خاصة لزراعة بعض أنواع الزهور، وأماكن أخرى مظللة لحماية النباتات من أشعة الشمس اللافحة، ووقايتها من برودة الطقس عند الفجر. ويعمل على زراعة الأشجار قرابة ستين شخصا ما بين مهندس واداري ومزارع، ويسوّق معظم انتاج المشتل الى المؤسسات الحكومية والأهلية والشركات العاملة في المنطقة الشرقية. أما الجزء الباقي منه فيستهلك على مستوى الأفراد.

وعلى الرغم من حداثة انشاء هذا المشتل في عام ١٩٧٩، فانه قد استطاع في هذه الفترة الزمنية القصيرة، أن يوفر كميات كبيرة للاستهلاك المحلي من مختلف أشجار الزينة الخارجية والداخلية، واستيراد بذور للمسطحات الخضر (الحشائش)، ومحسنات ومخصبات التربة الكفيلة بالتحكم في نسبة الأملاح والاطباع في التربة الزراعية.

١



٣





١ — يفضل المهتمون بأشجار الزينة اقتناء النادر والجميل منها. ونشاهد هنا شجرة عمرها خمسة وثلاثون عاما من نوع «بنزاي»، استطاع الصينيون تقزيمها وتحجيمها لتصبح على هذا الشكل البديع.

٢ — معرض مؤسسة الميسة على طريق الدمام/الجبيل السريع لبيع نباتات الزينة وبعض مستلزمات العناية بالحدائق المنزلية.

٣ — يعتبر مشتل المؤسسة السعودية للخدمات الزراعية من المشاتل الرئيسية في المنطقة الشرقية. ويشاهد في الصورة جانب من المشتل.

٤ — انتشار الأشجار والأزهار على جوانب الشوارع والطرقات يضفي على النفس جوا من البهجة والسرور.

شجيرات ونباتات خارجية، وذلك عن طريق الاعلان عن ذلك في الصحف الحلية. ولزيادة فعالية المشتل، من حيث الكم والكيف، يجري القائمون عليه تجارب على نوعيات من شتلات وبذور بعض أنواع غير معروفة محليا، بغية معرفة مدى ملاءمتها وتفاعلها مع مناخ المنطقة وظروفها الجوية.

مشتل المؤسسة السعودية للخدمات الزراعية

يعتبر هذا المشتل واحدا من مشاتل المنطقة الشرقية الكبيرة، حيث يضم على رقعته التي تبلغ مساحتها ثمانين ألف متر مربع، قرابة سبعمائة ألف شجرة وشتلة ونبتة، مختلفة النوعية والحجم. كما يضم بيتا محميا تبلغ مساحته ألف متر مربع، لاستنبات وزراعة وحماية أعداد كبيرة من الأشجار الخارجية والداخلية. ويتميز هذا المشتل عن غيره من المشاتل الأخرى، بأنه يضم مظلات من شأنها وقاية النباتات من وهج الشمس وقت الظهيرة، ومن تدني درجة الحرارة عند الفجر. أما بالنسبة للنباتات الغضة فهنالك أوعية بلاستيكية خاصة بوقايتها من البرودة أثناء الليل. ويشرف على هذا المشتل الذي تم انشاؤه في عام ١٩٧٧ عدد من المهندسين والموظفين والمختصين بتربية أشجار الزينة.

ورغبة منها في توفير بعض أنواع البذور، والمبيدات الحشرية، وبعض الآلات الزراعية اليدوية، وأشجار الزينة الداخلية، في متناول يد صغار المستهلكين، فقد أقامت المؤسسة السعودية للخدمات الزراعية فرعا لها على شارع الملك سعود بالدمام، خاصا بمستلزمات العناية بالحدائق.

مشتل جامعة البترول والمعادن

أقيم هذا المشتل قبل سنتين تقريبا، بجهود المهندس الزراعي محمد مجدي الزيات وبمساعدة ثلاثة من الخبراء الزراعيين. وعلى الرغم من أنه يمثل مساحة صغيرة لا تزيد على ٩٠٠ متر مربع، فانه قد استطاع أن ينتج ما يربو على ١٧ ألف شجرة وشتلة للزينة سنويا، يستخدم معظمها في تشجير شوارع واستراحات وطرقات الجامعة. والى جانب المشتل، أقيمت دفيئة لاستنبات وتكاثر أشجار الزينة الداخلية في جو ذي درجة حرارة معينة يكفل لها البقاء والنمو.

ورغبة منها في الاسهام في أسبوع الشجرة الذي يقام عادة في المنطقة، فان جامعة البترول والمعادن تبدي دائما استعدادها لتزويد المؤسسات والهيئات الحكومية بما تحتاجه من





١ ٢

أشجار الزينة في المنطقة

تنتشر في مشاتل المنطقة الشرقية من المملكة أنواع عديدة ومختلفة من أصناف أشجار الزينة يربو عددها على خمسين نوعا، منها ما هو مستوطن، ومنها ما هو مستورد من الخارج. الا أن حوالي ٣٠ صنفا منها يستخدم بكميات كبيرة. والجدير بالذكر أن جميع هذه الأصناف تتميز بملاءمتها لطقس المنطقة ومقاومتها لملوحة الأرض. وأشجار الزينة هذه يمكن تقسيمها الى فئتين رئيسيتين هما:

* **فئة أشجار الظلال والأشجار الصادة للرمال**: ويأتي على رأسها شجرة الاثل أو العبل — Tamarisk، وشجرة الكافور — Camphor، وشجرة النخيل — Palm tree وأم الشعور أو التي تعرف باسم «صفاف رومي — Salix Babylonica»، وشجرة التوت الأبيض والتي يطلق عليها اسم «فرصاد — Morus Alba». وتزرع جميع هذه الأشجار، في المناطق الصحراوية، وهي سريعة النمو بحيث يصل ارتفاع بعضها الى أكثر من سبعة أمتار، وهي من الأصناف التي تتميز بقدرتها على مقاومة الجفاف والحر والبرودة.

* **فئة أشجار الزينة**: وهي أنواع وفصائل متنوعة، فمنها المزهر وغير المزهر، ودائم الخضرة أو الموسمي الذي يفقد أوراقه ونضارته ابان فصل الخريف أو الشتاء. وهناك أيضا الشجيرات والنباتات المتسلقة والمعترشة، وهي توجد بأنواع متباينة. ومن أهم أنواع هذه الأشجار، شجرة الأثاب — Ficus Benghalensis وهي ذات أنواع كثيرة تشمل، الكزوارينه — Casuarina، ولبخ أو ذقن الباشا — Albizzia Lebbek، والسنط أو الخروب المصري — Acacia Arabica، والخروب الهندي — Cassia Fistula، والبنسيانا أو زهر الجنة — Delonik Regia، والعرم — Carissa Edulis، واليكّة وهي من الفصيلة الزنبقية — Yucca، والصبار الأمريكي — Agave، وغيرها.

طرق تكاثر الأشجار في المشاتل

يعتمد أصحاب المشاتل في المنطقة الشرقية على ثلاث طرق في عملية تكاثر أشجار الزينة وزيادة عددها سنويا. وهذه الطرق هي «العقلة الساقية»، وتتمثل في قطع جزء أو فرع من النبات يكون قادرا على انتاج نبات جديد، ثم غرسه في وعاء خاص مليء بالرمل. ويسقى العود بالماء دوريا، ويبقى في مكانه الى أن يورق. ثم طريقة «الترقيد» وتنقسم الى قسمين: ترقيد هوائي وترقيد أرضي. فعملية الترقيد الهوائي تتمثل في اختيار غصن من أغصان الشجرة، متصل بالأم، ثم لفه من منتصفه تقريبا، بكيس من النايلون بداخله كمية قليلة من الرمل. ويبقى هذا الجزء ملفوفا الى أن يطلق جذورا، مع مراعاة ابقائه رطبا دائما. ثم يفصل عن الأم ويغرس في حوض بلاستيكي ليكمل عملية نموه بشكل طبيعي. أما عملية الترقيد الأرضي، فهي عبارة عن اختيار غصن طويل وقوي من الشجرة ودفن طرفه في الأرض بجانب الشجرة الأم. ويبقى كذلك الى أن تظهر له جذور، ثم يفصل عن الأم ويزرع على شكل شجرة صغيرة مستقلة. أما الطريقة الثالثة فهي طريقة استخدام البذور. وتتفرع الى فرعين، أولاهما رش البذور في التربة مباشرة، وثانيهما استنبات البذور في وسيط غذائي خاص مجهز في بيوت محمية، وتظل في هذا الجو الى أن تنبت وتكبر ويشتد عودها وتكون مهيأة للتأقلم مع الجو الخارجي وتصبح قادرة على النمو بشكل طبيعي في التربة الخارجية.

وسائل الري

تختلف وسائل ري الأشجار والنباتات من مشتل الى آخر، وذلك تبعا لحجمه وامكاناته. فبعض المشاتل يستخدم طريقة الري التقليدية بواسطة خراطيم المياه، وبعضها يستخدم طريقة التنقيط والتي تتمثل في دفع المياه عبر أنابيب بلاستيكية بقطر بوصتين،




٣



٤



٥



١ ــ يحتاج بعض أنواع الأشجار والنباتات الى أماكن مظللة لحمايتها من وهج الشمس.

٢ ــ عدد من مختلف الأشجار المزهرة وغير المزهرة تنمو وتترعرع في أماكن مظللة لحمايتها من حرارة الشمس.

٣ ــ ورود متفتحة بانتظار نقلها الى الجنائن الخاصة والعامة.

٤ ــ يحرص أصحاب المشاتل في المنطقة على ابقاء الشتلات الصغيرة والحساسة للتغيرات الجوية في بيوت محمية. ويظهر في الصورة بعض الأنابيب البلاستيكية المعلقة المستخدمة في أغراض الري.

٥ ــ يهتم بعض أصحاب المشاتل بتربية الشجيرات الصغيرة ذات الأزهار والورود المختلفة.

مدفونة تحت الأرض وموصولة بعدد من الخراطيم البلاستيكية الدقيقة المرنة، والبارزة على سطح الأرض. ويقوم العاملون في المشاتل بغرس كل واحد من هذه الخراطيم بالقرب من ساق الشجرة والشتلة، ويتحكم في عملية اسالة المياه عبر هذه الخراطيم جهاز آلي، يقوم بتزويد الشجيرات بما تحتاجه من مياه في أوقات معينة وبكميات مقننة. ويعتبر هذا النمط من أنماط الري مثاليا، حيث أنه يعطي النبتة كفايتها من الماء دون الاسراف فيه. ويمدها بالسماد اللازم اذا ما خُلط في خزانات المياه وضُخّ عبر الأنابيب، كما أنه يقلل من الاعتماد على الأيدي العاملة. وبعض المشاتل يستخدم الطريقتين السالفتي الذكر معا. ويتّبع الأسلوب نفسه تقريبا في سقاية النباتات داخل البيوت المحمية، من حيث كونه آليا. الا أن الري هنا يعتمد على طريقة الرش من خلال ثقوب متعددة عبر أنابيب بلاستيكية، معلقة على ارتفاع نحو نصف متر من سطح الأرض فوق النباتات الصغيرة، تندفع منها قطرات الماء، وفق توقيت زمني معين، فتتساقط على وريقات النبات طرية العود بخفة ولطف فتزداد نضارة وجمالا.

الـــورود والأزهـــار

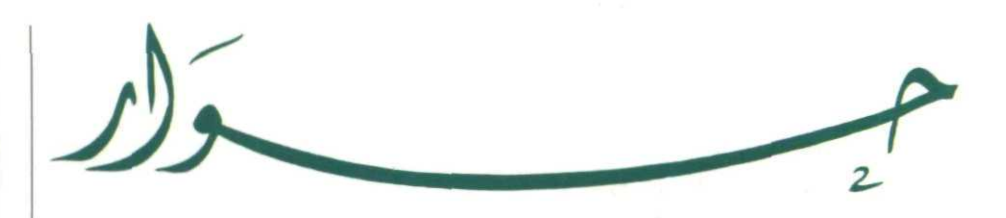
يعتقد كثير من الناس أن مناخ المنطقة الشرقية غير ملائم لزراعة الورود والأزهار. والحقيقة أن هناك فترة زمنية لا بأس بها، يمكن خلالها جني ورود وأزهار مختلفة. وتمتد هذه الفترة من شهر ديسمبر الى شهر ابريل من كل عام، حيث يكون الطقس معتدلا وملائما لنمو أنواع كثيرة من الورود والأزهار.

هذا، ويمكن زراعة أصناف مختلفة من الورود والأزهار والأعشاب البرية المزهرة في تربة ومناخ المنطقة الشرقية. ومن هذه الأصناف على سبيل المثال: «القرنفل»، و«الياسمين»، و«الفتنة» و«القنا»، وهذا الأخير عبارة عن عشب استوائي مزهر عريض الأوراق. وهناك أيضا «الأقحوان» (زهرة الذهب)، و«الزينية» وهو نبات من الفصيلة المركبة، و«العائق» وهو نبات جميل الزهر، و«الاذريون»، وغيرها. وتتراوح فترة زرع هذه الأزهار من مطلع شهر أكتوبر حتى نهاية شهر يناير. كما تتراوح فترة نمو الأزهار ما بين خمسة أيام وخمسين يوما. أما فترة الإزهار فتمتد من ديسمبر حتى أبريل من كل عام. وتختلف الأزهار والورود من حيث مقاومتها للحرارة والرياح، وملاءمتها لملوحة التربة. ولذلك فان بعضها يحتاج الى رعاية خاصة حتى يكتمل نموها وتنتج أزهارا وورودا جميلة.

وهكذا نأتي الى نهاية هذه الجولة التي قمنا بها في بعض مشاتل المنطقة الشرقية، تعرفنا من خلالها الى مختلف أصناف الأشجار الموجودة في المنطقة، والى الدور الحيوي الذي تقوم به هذه المشاتل في زيادة الرقعة الخضراء في المنطقة □

تصوير: **محمد صالح آل شبيب**

تنمو أشجار الزينة وأشجار الثمار جنبا الى جنب في بعض مشاتل المنطقة الشرقية.



حوار

شـعـر: أحـمـد مصـطفى حافـظ / القاهرة

الربيـع:

كـم تـغـنّـى بسوسني وبفُلـي ... شعرُك الغضُ.. بين دوْحي وظلي

أيقظَ الفجـرَ والطبيعةَ.. شدوي ... بعد أن جُبتُ الفَ تل.. وتـل

ثم عـمَّ الوجودَ ذوبُ سنائي ... فتبدّى في كل روض وحقـل

كلّ قفـر بلمستي صار دنيـا ... من فتون.. فذاكَ أصلي.. و(فصلي)!

هل لنولي— في الكائنات— نظير؟ ... ريشةُ الفن.. هل تقاسُ بغزلـي؟

* * *

الشاعر:

أنت بالبْشرِ يا ربيعُ.. بوادِ ... وأنـا صرتُ بـالسّـقـام.. بـواد

وعزيـز علـيَّ مـا أنا فيـه ... من نشوزٍ.. بين انسجام بـاد

أنت اشراقـةٌ بسُـدفَـة ليـل ... وستبقَـى للشعر قَـدْحَ زنـاد

ولغيري —مـن الخليّين— روْح ... بثّ فيه الريحانُ عطـرَ وداد

..غير أن القريضَ أروحُ عنـدي ... في حروفٍ.. وصفحةٍ.. ومـداد

* * *

الربيـع:

صاح أقصر! قد جرتَ في الأحكامِ ... ذرةٌ أنت.. في الخضَم الطامي!

كلّ صب بكلّ فـج.. يَراني ... أملأُ الأفقَ... نـاشرا أعلامـي

وثـنـايـا مَـطـارفـي ووشاحـي ... طـرَّزتها أنـامِـلُ الالهـام

باخضرارٍ.. وكـلّ لـونٍ بهيـج.. ... فـوقَ طوقِ المثّـال والـرسّـام

فارجعِ الطرفَ «هل ترى من فطور»؟ ... أم تماري بـغـفـلـةٍ وتَـعـام

* * *

الشاعر:

الف كلاّ!.. فأنتَ في لفَتاتي ... ومضةٌ.. فلتةٌ.. من الفلَتات

رمـحُ قدّ.. وغصنُ بانٍ.. سواء ... بـاتسـاقٍ.. تـقـاسما.. نـبضـاتي

نفحُ زهر، كثغرِ حسناءَ، يُزجي ... وحيَ فِـكْـر.. تـزفهُ خطَراتي

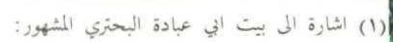
أنت نـبْـع مجددٌ.. كـخيـالي ... أنت نـورٌ.. يفيضُ في مشكاتي

نلتَ فخرَ الخلودِ في بيتِ شعرٍ ... (بحُتريٍّ).. يرويه ماض.. لآت[1]



---

(١) اشارة الى بيت ابي عبادة البحتري المشهور:



أتـاك الـربـيـع الـطـلـق يختـال ضـاحـكـا ... من الـبشر.. حـتـى كـاد أن يـتـكـلما

نظرة في شعر الفتوحات الاسلامية

بقلم: عبدالجبار السامرائي / بغداد

يزخر الشعر العربي، بصور كثيرة متنوعة من البطولة والاستبسال والفداء، تعكس في مجملها صورة الانسان العربي الشجاع، وما عرف به من قوة الشكيمة ورهافة الحس وعمقه. فالعربي، مذ وجد، وعلى امتداد الحقب، صفت نفسه، وبريء جنانه من أدران الخوف والاستكانة لذل أو ضيم أو قهر.

لقد دأب العرب على درأ غائلة العدوان والتسلط، فكانوا في سبيل ذلك، يضعون أرواحهم فوق الأكف، ويبذلون أنفسهم رخيصة من أجل الذود عن عرضهم وكرامتهم، ولم يكونوا يخوضون غمار المعارك، أو يريدون الحرب لأجل الحرب — وكانوا يسمون الحرب: الكريهة — وانما للذود عن حماهم وأوطانهم.

لقد حفلت أيام العرب المشهورة، ووقائعهم الكثيرة الطاحنة بصور فريدة من الشجاعة والتضحية دفاعا عن الحمى وشرف القبيلة، فكانت أغلب تلك الصور في حقيقتها رمزا يشير بوضوح الى موقف العربي الملتزم بمبادىء الاسلام العظيم، والذود عن الأرض التي ترعرع بين أحضانها ويشعر بالانتماء اليها [1].

لقد أخذ شعر الفتوح مساحته في القصيدة العربية، واتسعت مدلولاتها في اطارها الشعري، وأثريت مضامينها من خلال استخدام الشعراء للمفردة الشعرية التي كانت تتحرك في دائرة المعاني، وشحنت ألفاظها بقدرات المقاتلين الاشداء الذين كانوا يثرون عطاءها بتضحيتهم، ويوقدون سعيرها باقتحامهم، ويمتلكون زمام المبادرة بجرآتهم النادرة، وبطولتهم الفذة. وكان الشعراء الذين يخضون المعارك يسجلون لوحات المفاخر الخالدة، والمآثر التي يظل صداها يعيش في قلوب الرجال الذين يستذكرونها باعتزاز، ويعيشونها باباء ويتمثلون بها كل ما دعت الحاجة اليها [2].

وشعر الفتوحات الاسلامية يرسم صورة مشرقة للانطلاقة الهائلة الواسعة، في فتوحاته، كما أنه يرسم صورا رائعة للفروسية العربية في ذلك الاطار الجديد الذي وضعه الاسلام لتقاليدها، وصورا رائعة أخرى للايمان المطلق، والتصديق العميق بما وعد الله به المؤمنين المجاهدين. ولشعر الفتوحات الاسلامية خصائص مميزة من أبرزها:

التعبير عن روح الاسلام

ليس ثمة شك في أن الاسلام قد خلق قيما جديدة في حياة العرب، وان هذه القيم، قد امتد أثرها الى كافة مجالات الحياة العربية ومظاهرها، بما في ذلك الشعر الذي طبع بطوابع اسلامية جلية في شكله ومضمونه. فقد أدت ظروف الفتح المادية والنفسية الى احداث تغيير في شكل القصائد، فصارت مقطعات قصيرة، فضاقت من ثم عن استيعاب أكثر من غرض واحد من أغراض الشعر، لتكون متفقة مع قصر النفس الشعري، بسبب اهتمامات القتال، ولتطير على ألسنة الشعراء العاديين الذين راحوا يودعون الأبيات القصيرة من القصيد والزجر مشاهرهم، ويتخذونها أداة

(١) غانم جواد رضا: «لمحات من شعر البطولة العربية في شعر الحرب» الناشر: دار الجاحظ — بغداد/١٩٨١م.

(٢) د. نوري حمودي القيسي: «شعر الحرب في عصر الرسالة».

سريعة للتعبير عن ذواتهم، وحمل ما بنفوسهم من أحاسيس. ولعل الطوابع الاسلامية التي طبعت المضمون في هذا الشعر، أوضح الطوابع التي تعرض للتأثر بها وأعمقها على الاطلاق. فلو تصفح الدارس شعر الجهاد وهو يمثل كثرة شعر الفتوح لوجده في مجموعة يذهب في الفخر، والاشادة ببلاء المسلمين، وتصوير نكايتهم بالعدو كمجموع متحد الوجدان. ولذا يسم الشعر في كثرته استخدام ضمير الجماعة بشكل ملحوظ. وهذه الجماعة بطبيعة الحال ليست القبيلة أو العشيرة، وانما هي جماعة المسلمين الكبيرة، التي استوعبت كل العلاقات العصبية والقبلية، القائمة على وشائج القربى والدم والنسب، فنسختها في اطار وجداني وفكري، يقوم على أواصر الأخوة والانسانية والعقيدة والمساواة، وراح الشعراء يصدرون عنه. فهذا «عبدالله بن عتبان» الذي افتتح «جي» من أعمال «أصبهان» يفتخر بنفسه في بيت واحد، ثم اذا به يرتد الى الوجدان الجمعي، ليفخر بجماعة المسلمين وبلائهم فيقول:

من مبلغ الأحياء عني فانني
نزلت على «جي» وفيها تفاقم
حجزناهم حتى سروا ثم انتزوا
فصدهم عنا القنا والصوارم
وجاد لها «القاذ وسقان» بنفسه
وقد دهدهت بين الصفوف الجماجم
ليزكو لنا عند الحروب جهادنا
اذا انتطحت في «المازمين» الهاهم

الايمان المطلق

لعل أقرب تسمية للمسلمين في شعر الفتوح كله، ما أسماهم به «زياد بن حنظلة» من أنهم رجال الله، فهذه التسمية أكثر انطباقا عليهم وعلى الحقيقة. اذ أنهم أدركوا هذا تمام الادراك يوم أن اتخذوا هذه العقيدة دينا، ويوم توحدت كلمتهم على هذا الدين الذي بث فيهم أحاسيس ومشاعر سامية، وأبدلهم من بعد ضعف قوة، وجعلهم يشعرون بأنهم دائما منتصرون ما داموا جندا في سبيل أعلاء كلمة الله.

وقد ظل هذا الاحساس يلازم المجاهدي في الميدان. وهم لا يستشعرون أدنى ضجر أو ضيق بازاء ما يلقون من مشاق الجهاد، ومن المنايا التي تحدق بهم من كل جانب، وانما هم يحمدون الله على هذه المشاق، ويشكرونه لأنه هداهم للايمان، ويسألونه أن يوفقهم في طاعته. يقول في ذلك «عروة بن زيد الخيل»:

صبرت لأهل «القادسية» معلما
ومثلي اذا لم يصبر القرن أصبر
فطاعنتهم بالرمح حتى تبددوا
وضاربتهم بالسيف حتى تكركروا
بذلك أوصاني أبي وأبو أبي
كذلك أوصاه فلست أقصر
حمدت الهي اذ هداني لدينه
فلله أسعى ما حييت وأشكر

وبايمان العرب المطلق، الذي شاع اثره في الشعر، ركز الاسلام في العرب الاحساس بالقوة، وقد أثمر ايمانهم من اعتداد بأنفسهم، وتقدير لذواتهم، واستهانة بقوى الباطل، لايمانهم بأنهم على حق وفي سبيله. وقد أبدلهم الاسلام عن احساسهم بالضعف والهيبة أمام الفرس والروم احساسا بالقوة، وشعروا بأنهم الأعلون، وان على أكتافهم تقع مسؤولية تبليغ الرسالة. وبغير هذا الاحساس والايمان، لم يكن يتسنى للعرب، وهم قد انتهوا من حروب داخلية حصدتهم حصدا، ولم يكن يمكنهم وهم على ما هم عليه من ضعف العدة وقلة العدد، وضيق ذات اليد، بالقياس الى الفرس والروم،لم يكن يتسنى لهم أن يدكوا معاقلهم ويقضوا عليهم قضاءا مبرما، في كل موقعة خاضوها معهم.

الاستشهاد بآي الذكر الحكيم

ولعل أكثر الطوابع الاسلامية مباشرة وأبرزها ظهورا في شعر الفتوح، محاولة تمثل بعض المعاني الاسلامية الخالصة، تمثلا قريبا من صورتها في آي الذكر الحكيم، كما حدث في شعر «النابغة الجعدي» الذي اتخذ زوال دولة الفرس موضوعا له، فصوره معجزة من المعجزات الباهرة، التي وفق الله المسلمين اليها، حتى ليجعلنا نعتقد: «أنه، أي النابغة، وضع أمامه آيات الذكر الحكيم بعينها، وراح ينظمها نظما حافظ — خلاله جاهدا — على ألفاظها. وهي محاولة رائعة، واذا تتبعنا أبياته ادركنا المدى الذي أوصله الينا في هذه المعاني حيث يقول:

الحمد لله لا شريك لـه
من لـم يقلها فنفسه ظلما

وهذا معنى يتردد كثيرا في القرآن الكريم، من مثل قوله عز وجل على لسان لقمان وهو يعظ ابنه: «**يا بني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم**». وينتهي النابغة ليذكر الفاتحين بالمعجزة التي أجراها الله تعالى على أيديهم، في ازالتهم ملك فارس فيقول:

يا أيها الناس هل ترون الى
فارس بادت وجدّها رغما
أمسوا عبيدا يرعون شاءكم
كأنما كان ملكهم حلما
أو سبأ الحاضرين مأرب اذ
يبنون من دون سيله العرما

الخصائص الفنية

واذا كانت الفتوح قد مثلت أكبر هدف شغل المسلمين في فترة صورها هذا الشعر الاسلامي، فان قيمة شعر الفتح لا تكمن في مجرد مواكبته لحوادث الفتح فحسب، بل تكمن في تصوير حياة المسلمين جميعا في هذه الفترة. ومن ثم يكون شعر الفتح ممثلا لعصر صدر الاسلام تمثيلا كاملا. ويكتسب من هذه القيمة قيمة حضارية، لعصر من العصور الأدبية، طالما مرّ الباحثون به مرور الكرام، ونسبوا اليه همود حركة الشعر وجمودها.

ويصبح من ثم أدق نموذج للشعر الاسلامي، والمجال الطبيعي لاستجلاء آثار الاسلام في الشعر العربي، لمواكبته قيمه ومثله وحياته، وتطوره مع أهدافه وغاياته بتصويره لأضخم جوانبه، وكانت النتيجة اكتسابه خصائص فنية خاصه به. وهذه الخصائص التي خصّت شعر الفتوح، استمدها من الاطار الفكري الاسلامي، من ظروف حركة الفتح التي صدر في خلالها، ومن التقاليد الموروثة للشعر العربي، على اختلاف في مدى هذه المصادر، وهي:

الفكر الاسلامي

فطابع الالتزام الذي طبع الشعر نتيجة لالتزامه بغايات ومبادىء يعمل في خدمتها، أداة اجتماعية وفكرية طابع مستمد من الفكر الاسلامي، ومن جدية الظروف التي صدر فيها وسموها.

وهكذا نستطيع أن نقول: ان طابع الالتزام الذي طبع هذا الشعر غيّر مفهوم الشعر الاسلامي بعامة، وشعر الفتح بخاصة، اذ جعله أداة في خدمة المثل الاسلامية، والغايات والمبادىء التي ندعو اليها. وكان لهذا أكبر الأثر في تلوين أغراض الشعر ومعانيه بلون اسلامي واضح، يتفق وهذا الالتزام.

السلاسة والوضوح

ولعل أول ما يلفت نظر الدارس لشعر الفتوح هو هذه السلاسة في الاسلوب وطابع الوضوح في المعاني، فلقد كان في أحيان كثيرة، خلوا من الألفاظ الغريبة والمعقدة، كما تميزت معانيه بالوضوح والبساطة.

ويعجب الدارس لتلك السلاسة والوضوح في هذا الشعر الحماسي، الذي يجسد لنا بدقة متناهية تلك الأحداث، ويصور هذه المواقف المثيرة في لغة سهلة قريبة لم نألفها في الكثير من نصوص الشعر العربي الذي وصلنا عن تلك الحقب الزمنية المتقدمة.

ومن تلك النصوص الشعرية التي تتسم بالسلاسة والوضوح، ما قاله «كعب بن معدان الأشقري» وهو يصف أحدى المعارك، وقد استهلها بالغزل:

يا «حفص» اني عداني عنكم السفر
وقد سهرت فآذى عيني السهر
علقت يا كعب بعد الشيب غانية
والشيب فيه عن الأهواء مزدجر

ثم يقول:

لما وهنا وقد حلوا بساحتنا
واستنفر الناس تارات فما نفروا
خبوا كمينهم بالسفح اذ نزلوا
بكازرون فما عزوا وما نصروا
باتت كتائبنا تردى مسومة
حول «المهلب» حتى نوّر القمر
هناك ولوا خزايا بعدما هزموا
وحال دونهم الأنهار والجدر
تأبى علينا حزازات النفوس فما
نبقي عليهم ولا يبقون ان قدروا

الايجاز

وشعر الفتح مقطعات قصيرة في مجموعه، ونادرا ما نصادف قصيدة يزيد عدد أبياتها على العشرة. فقد تخفف شعر الفتح من بعض التقاليد الفنية للقصيد العربي، وأصبح القصيد مقطعات قصيرة، لا تحتوي على أكثر من غرض واحد.

والايجاز طابع كان يحظى بتقدير الفكر الاسلامي، فهذا القرآن الكريم معجزة الفصاحة والبلاغة، في هذا الوقت يبلغ حدّ الروعة المذهلة في غير كثير من الاسهاب، أو الاستدلال فيما لا يحتاج اليهما. وهذا رسول الله محمد، ﷺ، يبغض الثرثارين والمتفيقهين، ويعدهم أبعد الناس منه مجالس يوم القيامة.

ان ظروف القتال وحياة الجند المليئة بأعباء الفتوح، والحركة الدائبة، وأهوال القتال، وشدائد اللقاء، لا تدعو الى استقرار، كما لا تساعد على تمهل أو امتداد نفس أو غناء، أو تشقيق للكلام، أو توليد للمعاني، بل انها لتدعو الى الايجاز دعوة ملحة، وتدفع اليه دفعا، وتضطر اليه اضطرارا. فليس ثمة شيء يريد المجاهد أن يفضي به غير مشاعر اللحظة الوجيزة الحادة، يلقيها دونما اسهاب أو اطالة، فهي مشاعر واضحة وبسيطة، وليست بحاجة الى بيان أو ايضاح أو اضافة، كما أنها ليست بحاجة الى الحاح على الفكرة أو تقليب لها على وجوهها، أو التوليد منها. وانما هي بريق خاطف، وانفعال لاهب، وانطلاق راكض، وتعبير مركز مضغوط.

وكانت النتيجة، تغيّر صورة القصيدة العربية الى مقطوعة قصيرة، وأبيات تستوعب الانفعالات الحادة والعواطف الملتهبة، التي تشبه الضربات المتلاحقة في غير امتداد في النفس أو تمهل في الغناء، فانفسح بهذا المجال أمام (الرجز) بأبياته القليلة لتأدية معاني القصيدة. وقد يجد الشاعر فرصة في أعقاب المعركة يستشعر فيها على مهل كل عواطفه، ويتأمل ذاته تأملا مستأنيا، ولكن ذلك كان نادر الحدوث.

التلقائية

ونتيجة للايجاز وانطلاق التعبير وحدّته، والقصد الى الفكرة مباشرة، دون اسهاب اتسم شعر الفتوح لهذا بطابع التلقائية «العفوية» أو «البساطة». فهو شعر مطبوع ينأى عن الالتواء والتعقيد، ولعل ذلك يعود الى ما كان يعترض حياة الشعراء من شواغل الجهاد، فهذه الظروف التي كان يمر بها الشاعر لم تترك له المجال ليتأنق في ألفاظه ويتروى في تنقيحها أو في اختيار معانيه وصوره الشعرية، فكان في الغالب يعبر عما يعتريه من أحاسيس ويخامره من انفعالات آنية دون تكلف أو مكابدة.

يقول الأستاذ «شوقي ضيف» مؤكدا هذا الجانب في شعر الفتوح: «.. ولذلك كانت فيه —أي في شعر الفتوح— البساطة، وعدم التكلف، لما يعترض صاحبه من شواغل الجهاد التي تحول بينه وبين اطالة الفكرة، كما تحول بينه وبين المعاودة للفظ وتجويده وتحبيره...»

ولسنا نقصد بالعفوية أو التلقائية التحلل من كل قيد، أو تقليد فني، أو نظام، كما اننا لا نعني بها خلو هذا الشعر من أية قيمة جمالية فنية، انما نعني بها انعدام الصقل والتهذيب والمعاودة والمراجعة. وبالتالي، انعدام التكلف والتقعر والتعمل. ونتج عن هذا: ان شعر الفتوح، وبلا استثناء، يتسم بميسم الصدق والحرارة الانفعالية، كاستجابة نفسية حرة وطليقة من اسار العناية والصنعة. وكان ذلك أثرا من آثار القيم الاسلامية الجديدة، التي تُستَمد من سماحة الاسلام وبساطته، وكراهة التعمل والتكلف، وهي صفات عُني الاسلام بغرسها في نفوس المسلمين عامة.

وبعد، فان شعر الفتوح، كان دائما وأبدا، ولدى جميع الأمم سجل فخرها، وعنوان بأسها وأناشيد بطولتها. ولا شك في أن تصوير شعر الفتوح لتلك الأمجاد العربية الاسلامية الفذة، ليس الا تصويرا لجوانب الحياة الاسلامية عامة في ذات الوقت، اذ أن الحقيقة التي لا جدال فيها أن الفتوح كانت أهم ما شغل حياة العرب، سواء من كان منهم تحت ظلال السيوف أو على حافة المبادىء، فما من شك في أنهم كانوا يتنسمون أخبارهم، ويترقبون ما يمكن أن تسفر عنه هذه الحركة الهائلة، فاذا بابنائها من يوم الى آخر تطلع عليهم في أقاصيص ممتزجة بغبار الوقائع، واذا بهذه الروايات تنتشر في ربوع الديار العربية لتشغل كل اهتمامات المسلمين، ولتصبح زادا لسمرهم، لا يزالون يقصّونها ويزخرفونها ويعجبون بها.

وصفوة القول، عن هذا الشعر الحماسي، الذي كان ومضات صادقة صادرة من وجدان الشاعر العربي في ساحات القتال، يعد وثيقة تاريخية مهمة في حياة العرب. وفضلا عن قيمته الفنية، فقد سجل هذا الشعر بصدق ودقة كثيرا من الأمور التي أغفلها كثير من المؤرخين، كما رصد بالوصف صور البطولة، والانتصارات العظيمة التي صنعتها البطولة الاسلامية الرائدة، في تلك البقاع النائية □

قصة خليجية:



بقلم: منذر شعار / الكويت

قال علي لصديقه وهما يسيران في طرقات الكويت وقصدهم بيت النوخذا:

— ما كان مرادي، يوما، أن أكون نهاما ولا لي رغبة، أية رغبة، في أن أعيش على الغناء، ولكن القدر جرى بما كتب، وأراني مسيّرا لا مخيّرا.

قال الصديق:

— ولكن صوتك جميل. وفيه اثارة للحزن، والهاب للنشاط، والبحارة يرتاحون له ويزداد عملهم عليه.

قال علي:

— كنت أغني عن دافع ذاتي، قبلا، كنت أتحسس من نفسي الولوع بفن التطريب والتنغيم والتوقيع.. ومد الصوت وصب الأشواق في الكلمات، وكنت أميل الى المغنين البحريين، حتى أتقنت ما يغنونه، وصحبت السفينة لأكون غواصا أو سيبا، فكنت، ولا أدري كيف نهاما.

قال الصديق:

— النهام مطرب البحارة، ومحرك الغوص، وجمال الرحلة كلها. وها نحن ذان سائران الى بيت النوخذا لنقبض التسقام.

قال علي:

— هل تراه قبض هو من التاجر.

— نعم.. فقد أعلن لجماعة أن هلموا فتسقموا، فقد عزم على رحلة الغوص في الصيف الذي على الأبواب، اتفق عليها، ودفع التاجر المال، وأخذ النوخذا يسقّم بحارته، وأنت لك الحق، مثلنا، في هذه الدفعة المالية الأولى، في رحلة الغوص الموسمية.

قال علي وهو ينفث بعض نفث الحزن:

— يسمونها هنا «التسقام»، عامية، وأراها، بالفصحى كما يدل معناها «سقما وأمراضا»، فنظر الصديق وقال معاتبا بشدة:

— ويحي، ما هذا الكلام! ما سقم وأمراض، ونحن ذاهبون لبدء رحلة الموسم، ونقبض المال؟

اذا كانت هذه الدفعة الأولى في آخر الشتاء سقما، فماذا تسمي الدفعة الثانية: السلفية، والدفعة الثالثة قبل الرحيل: الخرجية. وما لك اليوم يا علي:

قال علي:

— ويحك أنت.. ليس بي شيء.. أنا حزين فقط.

— حزين؟.. ولماذا الحزن؟

— الحزن ضروري للمغني، أترى غناءنا البحري وذلك التطريب الجميل يحلو في القلوب والآذان لو لم يكن من الحزن واليه؟

— اذن أنت تحزن صنعة ومهنة.

— لا... أجدني هكذا بالطبيعة.

— طبيعتك توائم مهنتك.

ومشيا، ولكن عليا كان كأنه يكتم شيئا. لقد كان برحا بحاله، وكان قد ترك ابنه في البيت مريضا. وقد وصلا الى النوخذا وقبضا «التسقام»، وعادا، ثم مرت مدة وقبضا السلفية، ثم تحرك موكب الغوص قابضين الخرجية، وصار لرجال في السفينة.. وعليّ النهام كما هو، حزين ضجر، وابنه لا يزال متوعكا في فراشه بالكويت.

وانغمر الرجال في الغوص، وفي التنقل من هير الى هير. وعليّ يغني ذلك الغناء التقليدي المثير. ويحسن البحارة جميعا القاء التصفيقة الدقيقة على غنائه، وهو يطرّب بهم ويميل فينشطون ويمرحون، فيأتلق العمل وتكثر أكوام المحار.

ومرت فترة ركود، فخشي النوخذا أن يسقط الموسم، وان الحياة كلها تضيق وفرج، وعسر ويسر، وقد قل المحصول وخمد أوار الرجال، فترة، وقد يكون هذا طبيعيا في كل عمل، ولكن النوخذا كان يرى يومئذ أن لو غنى النهام بحرارة أكثر وطرّب أوقع ومال مع عواطف البحارة ميلانه الحزين الملتاع لفتح لهم وللسفينة باب الرزق. باذن الله. وكان القوم يومئذ في مجابهة الطبيعة، يلقونها مباشرة، ومن كان هذا دأبه آمن بأمور لا تخطر على بال المعافى من مجابهة الطبيعة وزمجرتها واعصارها وكون رزق آت منها لؤلؤة في فكي ثعبان ولذا تلفت النوخذا يومئذ يبحث عن النهام.. علي.. ليشرح له الأمر ويلتمس منه أن يغني من غد غناء آخر فيه المد الرجائي مع اللوعة الشكوية، فرآه على البعد في طرف السفينة مشغولا، والبحارة بمرأى سفينة طواش تقترب من سفينتهم. وقد قام النوخذا يومئذ وشغل بما شغل به البحارة. واقتربت سفينة الطواش، وأنزلت القوارب ودعي النوخذا يومئذ وشغل بما شغل به البحارة. واقتربت سفينة الطواش، وأنزلت القوارب ودعي النوخذا يومئذ لسفينة الطواش لمهمة تجارية معروفة في الموسم، ولمح النوخذا —عرضا— رجلا من سفينة الطواش يقصد الى عليّ النهام

ويتحدث اليه قليلا، ولم يلق النوخذا يومئذ بالا الى هذا اللقاء الخاطف لشغله بالطواش ولأنه حديث بحار الى بحار أمر اذ ذاك جد طبيعي.. ثم لما عاد النوخذا ومضت سفينة الطواش خلا بعلي النهام وأفهمه أنه ان شد نفسه في الغناء واختار المقاطيع المثيرة ذات التصفيفات والمدود الشجية فقد يحمّس الرجال وينشط ويفتح لهم وللسفينة كلها باب الحظ، وفهم علي يومئذ من النوخذا أن ما قاله رجاء زميل وأمر رئيس وتفاؤل انسان. فقبله واقتنع، وبدا منه الطاعة والاصرار والعزم على ما أمر به النوخذا دون تلكؤ أو ريب.

وفي الغد.. قام النهام الى غنائه مع بدء الحاجة له، وغنى يومئذ كما لم يغن من قبل، (ونهّم) كما لم «ينهم» نهام في هذا الخليج، وسرى غناؤه وتطربه ومدود صوته في عروق الغواصين والسيوب وسائر الرجال فاشتعلت السفينة اشتعالا وطاف بها الرجاء أنساما والرزق تصاوير، وأحس النوخذا أن القاع، قاع الهير، ينتفض عطاء والمحار المهال من الديايين يتشوق للفلق فالبريق العريق، لقد كان النوخذا في صواب اذ رجا ما رجا وكان النهام في كفاية، اذ غنى ما غنى كأنه مطرب المطربين ورئيس النهامين. ولقد كان غناؤه يومئذ متقنا ومنهجيا وابداعيا الى الحد الذي لو كان فيه تسجيل لغدا مدرسة في بابه، وأمثولة وكتابا، وقد سر النوخذا يومئذ والبحارة، وقلقوا فحصلوا على رزق كثير فاستبشروا وحمدوا الله، ثم توجه النوخذا الى النهام ليدعو له بالخير، فلما لقيه، وكان معه صديقه رآه واجما، فأثنى النوخذا عليه وقال: لولا أنت حمّست الرجال وطرّبت لهم لما كان ما كان، واللؤلؤ كأنه يسمع ويفهم فلا يخرج الا على رجال منتشين.. وقد يرى غيرنا ما نفعله ونؤمن خللا وغيا ولكننا معشر نعرف أن الانسان كبد حرى فما توجهت اليها وجبت فصعد وجيبها خيرا الى يدي الانسان وفمه وعينيه...

وكان النوخذا يتكلم وعليّ النهام ساكت، والمنتظر أن يكون النهام فرحا مسرورا ومشتركا في السبب، فقال النوخذا وهو يقاطع نفسه:

— مالك يا علي، اتكلم وكأنك لست هنا.

قال صديق علي مجيبا عنه:

— ذلك لأنه — يا نوخذا — في مصيبة.

— مصيبة؟ ماذا في الأمر؟

— أتذكر ذلك الرجل الذي جاء من سفينة الطواش وكلم عليا؟ والقوم في شغل؟

— نعم أذكر

— فان ذلك الرجل كان ناعيا.

— ناعيا؟! ويلاه.. ينعى من؟

— ينعى ابن علي.. لعلي..

— يا ويلاه..

اذن كان علي يعلم بموت ابنه في الكويت، ومع ذلك أمضى أمر النوخذا، وغنى وطرّب.

ومال وأمال، ولم يعتذر بموت ابن ولم يتأخر عن عمل المجموع.. وقد حصر النوخذا يومئذ ولم يقل شيئا، هيبة واعجابا واهتزازا بالمكرمة.. لم يقل شيئا ولكن كانت أشياء تقول عنه يومئذ.. دموع علي.. وجداً على فلذة كبده، واطراق الصديق الوفي، وقسمات النوخذا المعجبة، وهدير البحر وهزيم البحارة، واكوام المحار وبريق اللآليء في «الحِقَاق» والأكياس.

وبعد أيام.. والسفينة تمخر العباب في اتجاه الكويت.. قال الصديق لعلي وقد هدأ — شيئا — حزن علي على الابن الفرط:

— كنت تعلم بالمصيبة وغنيّت؟.. أي شيء هذا.. لو كنت اعتذرت وبينت لعذرت وأكرمت وسليت وعزيت، فلماذا اخترت ما اخترت.

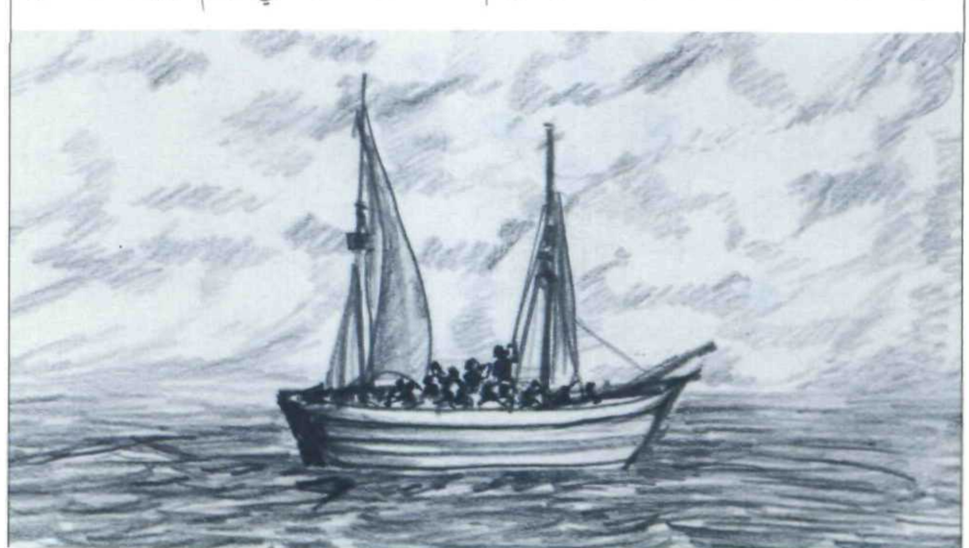
قال علي:

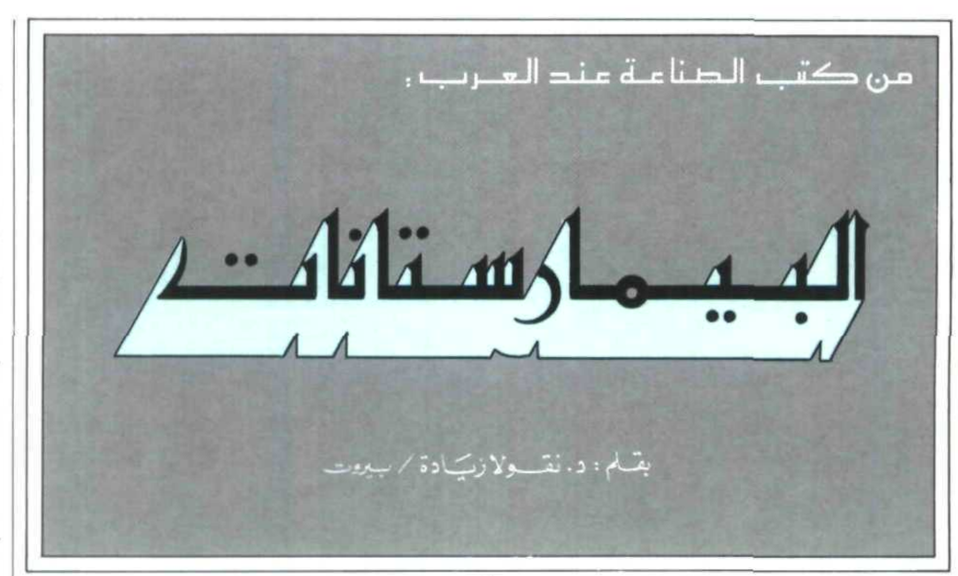
— كان القوم في أزمة، فما أحببت أن أغطي أزمتهم بأزمة. وكانوا يعقدون عليّ الأمل، فما أحببت أن أخيّب ظنهم، وكتمت جرحي، وحملت نفسي على ضد ما تنفجر به من الأحزان، وجريت مع رغبة النوخذا والقوم، ووجدت أنه لا يحق لي أن أبكي.. حتى يضحك الآخرون.

وسكت علي وسرّح الصديق نظره في الموج يفكر، ويرسل نفسه مع حفيف الأمواج وحفيف نفس النهام.. يا لهذا الخليج من منطو على لآليء في القاع، ولآليء أخلاقية في الأضلاع.. وقال علي كالهمس في وسط ذلك التأمل المنسرح:

— ليس غناؤنا نحن النهامين غناء، ولكنه تأوهات وتأملات وتطلعات.

وأيا كان، فانه عمل، ها هي أشباح الكويت تلوح، وان لها الكدح، ومن أجلها صراع الزمان وارتداء الأحزان □





قامت في القرن الثالث الميلادي حروب طويلة بين الدولة البيزنطية والدولة الساسانية الفارسية، وكان لسابور الأول الساساني انتصارات ضد خصومه. وكان كثير من الأسرى الذين حملهم معه من السوريين، فبنى مدينة لاسكانهم، هي جنديسابور، في جنوب غرب فارس. وقد أصبحت هذه المدينة مركزا تجاريا واداريا هاما خلال القرون الثلاثة التي تلت بناءها. وكان كسرى انو شروان ممن أولاها عنايته.

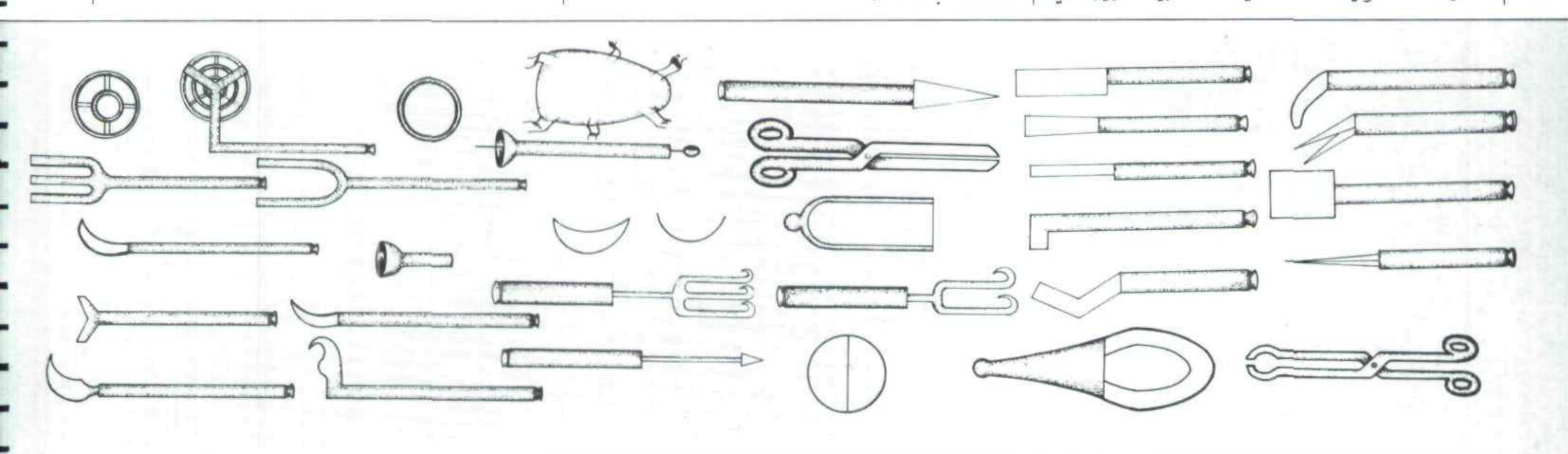
وكانت قد قامت فيما بين الكنائس المسيحية الشرقية (أنطاكية والاسكندرية والقسطنطينية والقدس فيما بعد) خلافات دينية لاهوتية في القرن الثالث. والتأمت مجامع مسكونية في محاولة لحل الخلافات، لكن الأمر ازداد شدة. وكان بين الفئات المسيحية التي اعتبرت خارجة عن نطاق المذهب الرسمي النسطوريون (أو النساطرة). وهؤلاء كانت لهم مدرسة لاهوتية ـ فلسفية ـ طبية كبيرة في مدينة ادسّا (الرها/أورفه». فلما اشتد الضغط على النساطرة، أغلق الامبراطور البيزنطي هذه المدرسة، فانتقل أساتذتها وتلامذتها الى «نصيبين»، التي كانت داخل حدود الدولة الساسانية. الا أن كسرى أنو شروان أسكن علماء المدرسة وطلبتها مدينة جنديسابور. وكان هؤلاء قد نقلوا، من قبل الكثير من الطب والفلسفة اليونانية الى السريانية (ابقراط وجالينوس/ وأفلاطون وسقراط)، كما أنهم تعرفوا، بسبب الاتصال التجاري الوثيق بين جنديسابور والهند، عن طريق الخليج العربي، على طب الهنود. ومن هنا كان وصف القفطي لهم بأنهم فاقوا معلميهم اليونان.

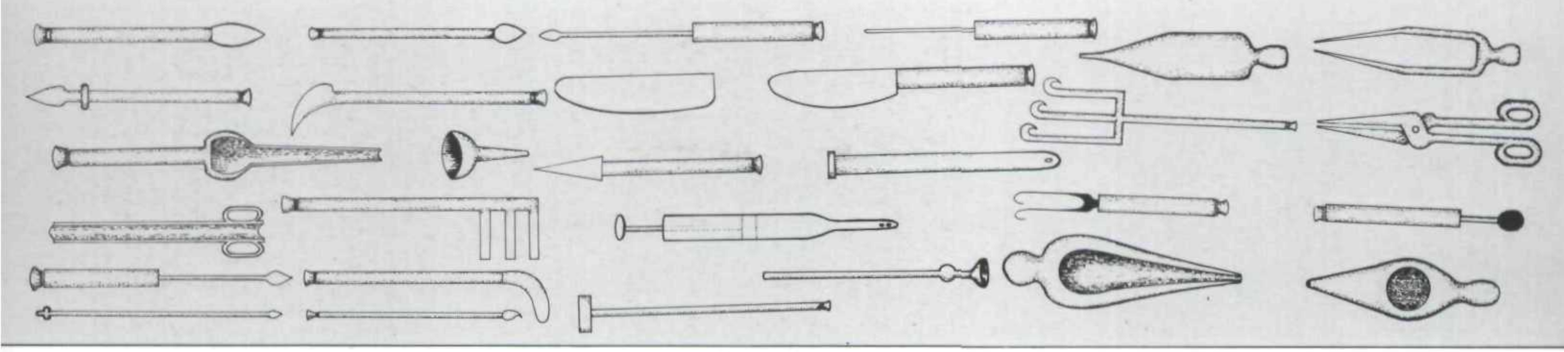
والى جانب هذه المدرسة الطبية المشهورة كان ثمة بيمارستان (مستشفى)، كانت فيه خدمات طبّية وجراحية، وكانت تعالج فيه العيون. ويروي البعض ان قاعات المرضى فيه كانت تضم قاعات خاصة بالرجال وأخرى خاصة بالنساء.

وبيمارستان جنديسابور هو أول مستشفى من نوعه نملك عنه معلومات صحيحة. فليس بين أيدينا نصوص تظهر وجود البيمارستان قبل ذلك. والذي نعرفه هو ان الجماعات المسيحية التي كانت تقيم في آسيا الصغرى كانت تنشيء أبنية يقيم فيها المرضى الى أن ينالوا الشفاء. وثمة أمر أصدره الأمبراطور البيزنطي يوليان (سنة ٣٦١م) الى الكاهن الأعلى في غلاطية (في آسيا الصغرى) يطلب اليه فيه أن يبني مقرا للمرضى في كل مدينة في اسقفيته، وان يقتطع النفقات اللازمة من الضرائب المتوجبة للدولة هناك. لكن ليس لدينا ما يدل على أن أطباء كانوا يعنون بالمرضى، أو أن أدوية كانت تقدم لهم في هذه الأماكن.

ويقول ابن القفطي المتوفى (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) في تاريخ الحكماء عن العاملين في البيمارستان: «ان أهل جنديسابور من الأطباء فيهم حذق بهذه الصناعة وعلم من زمن الأكاسرة... ولم يزل أمرهم يقوى في العلم ويتزايدون فيه، ويرقبون العلاج على مقتضى أمزجة بلادهم حتى برزوا في الفضائل. وجماعة منهم يفضلون علاجهم وطريقهم على اليونان والهند، لأنهم أخذوا فضائل كل فرقة فزادوا عليها بما استخرجوه من قبل نفوسهم، ورتبوا لهم دساتير وقوانين وكتبا جمعوا فيها كل حسنة.»

ومن المعروف أن عددا من أطباء جنديسابور طبّوا للعرب. فالنبي، صلى الله عليه وسلم، وخلفاؤه الراشدون، استطبوا أطباء جاؤوهم من هناك: كالحارث بن كلدة وابنه النضر. وكان ابن اثال، طبيب معاوية بن ابي سفيان، مسيحيا من جنديسابور.





ومستشفى جنديسابور كان النموذج الذي احتذاه العرب في اقامة بيمارستاناتهم، وذلك لما بنى هارون الرشيد (١٧٠ — ١٩٣هـ/ ٧٨٦ — ٨٠٩م) أول بيمارستان في بغداد، واستدعى جبريل بن بختيشوع من أطباء جنديسابور، ليشرف على انشائه، ثم ولى رياسته لماسويه وهو من أطباء جنديسابور أيضا.

وتظل الحقيقة المهمة في التاريخ هو أن البيمارستانات انتشرت في رحاب العالم العربي الاسلامي من افغانستان وأواسط آسيا الى مراكش ومن الجزيرة والعراق الى مصر. وقد أحصى الباحثون نحوا من مائة من هذه البيمارستانات، ولكننا لا نعتقد أنهم اهتدوا الى أخبار جميع ما بني منها في تاريخ الرقعة الطويل. ولم تقتصر هذه المستشفيات على عواصم الخلافة أو الدول، بل أقيمت في عدد من المدن الكبرى الأخرى والبلدان والقصبات. وقد كان مؤسسو البيمارستانات يعنون عناية فائقة باختيار أطبائها وجراحيها وكحاليها (أطباء العيون)، كما كانوا أسخياء في الانفاق عليها.

والذي نريد أن نؤكده هنا ان هذا العمل هو قمة شامخة من قمم الحضارة العربية الاسلامية، لأن البيمارستانات كانت، على ما سنرى، مؤسسات طبية اجتماعية علمية.

ورغبة منا في اعطاء صورة واضحة لهذه البيمارستانات، فاننا سنتناول خمسة منها للتحدث عنها، اذ ليس من الممكن عرضها جميعها. وهذه التي اختيرت هي: البيمارستان العضدي في بغداد، والنوري في دمشق، والصلاحي في القدس، والمنصوري في القاهرة، وبيمارستان المنصور الموحدي في مراكش.

لم يكن البيمارستان العضدي أول واحد أنشىء في بغداد. فقد مر بنا ان الخليفة هارون الرشيد أنشأ أول بيمارستان في عاصمة العباسيين. وقد بنى أولو الأمر، من الخلفاء والوزراء بعده ثمانية منها قبل العضُدي. لكننا اخترناه لأنه كان واحدا من أكبر المستشفيات التي عرفتها بغداد، ومن أطولها عمرا. وقد بناه عضد الدولة البويهي (٣٣٨ — ٣٧٢هـ/ ٩٤٩ — ٩٨٣م)، وقد تم بناؤه قبل وفاته بخمس سنين. فلما انتهى العمل فيه جمع له أكبر الأطباء والجرائحيين والكحالين، بحيث كان فيه أربعة وعشرون منهم، وكان على رأسهم جبريل بن بختيشوع (وهو حفيد جبريل صاحب هارون الرشيد). وكان بين أطبائه طبائعيون، وهم الذين يُعنون بتشخيص المرض، ووصف الأغذية والأدوية اللازمة. وكان فيه، الى ذلك، الخُزّان والوكلاء والخدم للعناية بالأدوية والأشربة والعقاقير الكثيرة التي نقلت اليه. وقد وقف عضد الدولة عليه الضياع والبساتين لتقوم بأوده.

الا أن بغداد مرت بها محن واحن بعد ذلك، وأصاب البيمارستان ما أصاب غيره من اهمال ودمار. فلما جاء السلاجقة (٤٢٩ — ٥٩٠هـ/ ١٠٦٣ — ١١٩٤م) الى السلطة، واستقر لهم الأمر، ورأوا الحالة السيئة التي آل اليها، عملوا على اصلاحه (٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م) في أيام الخليفة القائم بأمر الله (٤٢٢ — ٤٦٧هـ/ ١٠٣١ — ١٠٧٥م)، فأعادوا اليه أوقافه وزادوها. وجمعت «فيه من الأشربة والأدوية والعقاقير التي يعز وجودها..» وجعلت فيه الفرش واللحف والأسرة للمرضى. ووضع فيه ثمانية وعشرون طبيبا ونساء طباخات وبوابون وحراس. وظلت العناية به مستمرة، كما تعهده أولو الأمر بالاصلاح بعد الفيضان الذي أضر به (٥٦٩هـ/ ١١٧٣م). وقد زار ابن جبير الرحالة الأندلسي المشهور البيمارستان (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م) فقال عنه: «وبين الشارع ومحلة البصرة سوق المارستان، وهي مدينة صغيرة فيها المارستان... ويتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس، يطالعون أحوال المرضى به، ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون اليه، وبين أيديهم قَوَمَة يتناولون طبخ الأدوية والنظر في جميع مرافق المساكن. والماء يدخل اليه من دجلة».

وقد ظل هذا البيمارستان على ذلك الى أن دخل هولاكو بغداد (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) ودمرها وقضى على الخلافة العباسية.

أما بيمارستان النوري في دمشق فقد بناه نور الدين زنكي الذي حكم دمشق من (٥٤١ الى ٥٦٩هـ/ ١١٤٦ — ١١٧٤م). ومن شروطه أنه على الفقراء والمساكين، واذا لم يوجد بعض الأدوية التي يعز وجودها الا فيه فلا يمنع منه الأغنياء. ومن جاء اليه مستوصِفا فلا يمنع من شرابه. وقد زار ابن جبير دمشق أيضا وقال عن البيمارستان النوري: «ان جرايته في اليوم نحو الخمسة عشر دينارا. وله قَوَمَة وبأيديهم الأزمّة المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجون اليها في الأدوية والأغذية... حسبما يليق بكل انسان منهم. والأطباء يبكرون اليه في كل يوم، ويتفقدون المرضى ويأمرون باعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية».

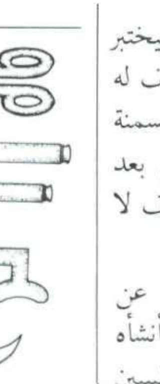
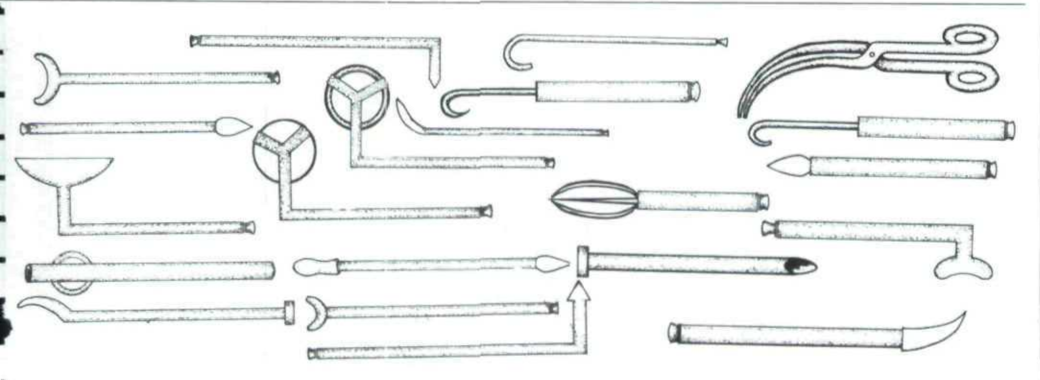
وقد استمر العمل بهذا البيمارستان مدة طويلة. فعندنا رواية عن خليل بن شاهين الظاهري، الذي زاره سنة ٨٣١/ ١٤٢٧، أي بعد انشائه بنحو ثلاثمائة سنة، فوجده بعد في حالة جيدة. وقد روى قصة لطيفة في نقلها الى القراء طرافة وفائدة قال: دخلت دمشق سنة ٨٣١، وكان يصحبني شخص عجمي... فلما دخل البيمارستان (النوري)، ونظر ما فيه من المآكل والتحف واللطائف التي لا تحصر، قصد اختبار حال البيمارستان المذكور. فتضاعف، وأقام

ثلاثة أيام، ورئيس الطب يتردد اليه ليختبر ضعفه. فلما جس نبضه وعلم حاله، وصف له ما يناسبه من الأطعمة الحسنة والدجاج المسمنة والحلوى والأشربة والفواكه المتنوعة. ثم بعد ثلاثة أيام كتب له ورقة معناها أن الضيف لا يقيم فوق ثلاثة أيام».

ولم يقع لنا، حتى الآن، خبر عن بيمارستان القدس، سوى ذلك الذي أنشأه صلاح الدين لما استعاد القدس من الصليبيين (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م). فقد زاد في وقف المدرسة التي عملها بالقدس، وهي التي عرفت بعد ذلك باسم المدرسة الصلاحية، وأمر بأن يقام في الدار المجاورة لها مارستان للمرضى. ووقف عليها مواضع كثيرة، وزودها بالأدوية والعقاقير اللازمة. ويبدو أن الزلزلة التي ضربت القدس (٨٦٢هـ/ ١٤٥٨م) قضت على ما كان باقيا من بنائه، بعد أن كان الخراب والاهمال قد أصاباه من قبل.

وممن عمل في بيمارستان القدس يعقوب بن صقلاب النصراني المقدسي، ومولده بالقدس، وقد عهد اليه صلاح الدين بالعمل فيه والاشراف عليه، فظل في منصبه الى أن استولى على الأمر الملك المعظم بن الملك العادل (٦١٥ــ ٦٢٤هـ/ ١٢١٨ــ ١٢٢٧م) فنقله الى بلاطه في دمشق. وقد مر بنا، في الحديث عن الصيدلة، اسم رشيد الدين الصوري، الذي كان واحدا من كبار العارفين بالأدوية المفردة وماهياتها. ورشيد الدين هذا عمل أيضا في البيمارستان الصلاحي في أوائل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. ولعله كان خليفة يعقوب.

يظهر من البحوث التاريخية عن البيمارستانات في مصر ان أولها أنشىء في أيام الأمويين. ودرج حكام البلاد على انشاء البيمارستانات في أيام أحمد بن طولون (٢٥٤ــ ٢٧٠هـ/ ٨٦٨ــ ٨٨٤م) وكافور الأخشيدي (٣٥٥ــ ٣٥٨هـ/ ٩٦٦ــ ٩٦٩م) والفاطميين في مصر (٣٥٧ــ ٥٦٧هـ/ ٩٦٩ــ ١١٧١م) وصلاح الدين (٥٦٧ــ ٥٨٩هـ/ ١١٧١ــ ١١٩٣م). الا أن البيمارستان الذي بلغ الغاية في البناء والاعداد والأوقاف المخصصة له هو البيمارستان الكبير المنصوري، الذي بناه الملك المنصور

قلاوون (٦٧٨ــ ٦٨٩هـ/ ١٢٨٠ــ ١٢٩٠م) من كبار سلاطين المماليك. ولما أنجزت العمارة وقف عليها المنصور من الأملاك القياس والرباع والحوانيت والحمامات والفنادق والاحكار في مصر، والضياع بالشام ما يقارب ١٠٠٠٠٠٠ درهم. وقد روى النويري، صاحب «نهاية الأرب»، في حوادث سنة ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م: «ركب السلطان وشاهده وجلس بالبيمارستان ومعه الأمراء والقضاة والعلماء... وأوقفه السلطان على الملك والمملوك والكبير والصغير والذكر والأنثى. وجعل لمن يخرج منه من المرضى عند برئه كسوة، ومن مات جُهِّز وكُفِّن ودُفن. ورتب فيه الحكماء الطبائعية والكحالين والجرائحية والمجبرين، لمعالجة الرَّمْد والمرضى والمجرحين والمكسورين من الرجال والنساء. ورتب له الفراشين والفراشات والقومة لخدمة المرضى واصلاح أماكنهم وتنظيفها، وغسل ثيابهم وخدمتهم في الحمام. وقرر لهم على ذلك الجامكيات (المرتبات) الوافرة. وعملت التخوت والفرش والطراريح والأقطاع والمخدات واللحف والملاءات، لكل مريض فرش كامل. وأفرد لكل طائفة من المرضى أمكنه تختص بهم. فجعلت الأواوين الأربعة المتقابلة للمرضى بالحميات وغيرها. وجعلت قاعة للرُّمْد وقاعة للجرحى وقاعة لمن أفرط به الاسهال، وقاعة للنساء، ومكان حسن للمرورين ومثله للنساء، والمياه تجري في أكثر هذه الأماكن، وأفردت أماكن لطبخ الطعام والأشربة والأدوية والمعاجين وتركيب الأكحال والشيافات (الفتايل) والسفوفات وعمل المراهم والأدهان وتركيب الدرياقات (الشرياقات)، وأماكن لحواصل العقاقير وغيرها من هذه الأصناف المذكورة، ومكان يفرّق منه الشراب... وجعل سبيلا لكل من يصل اليه في سائر الأوقات من غني وفقير... ورتّب لمن يطلب وهو في منزله ما يحتاج اليه من الأشربة والأغذية والأدوية». ويضيف انه كان «يصرف منه في بعض الأيام من الشراب المطبوخ خاصة ما يزيد على خمسة قناطير بالمصري (قرابة ٢٥٠ كيلوغراما) في اليوم الواحد للمرتبين والطوارىء». وقد استمرت عناية سلاطين المماليك بالبيمارستان حتى انتهاء أمرهم. لكن أمراء المماليك الذين ظل لهم نفوذ بعد الفتح العثماني (٩٢٢ــ ١٥١٧م) أخذوا أنفسهم بالاهتمام به فجدده الأمير عبد الرحمن كتخدا (١١٩٠هـ/ ١٧٧٦م).

ومن المغرب الأقصى نقف عند البيمارستان الذي بناه المنصور أبو يوسف يعقوب الموحدي (٥٨٠ــ ٥٩٥هـ/ ١١٨٤ــ ١١٩٩م) في حاضرة ملكه مراكش. قد قال عنه عبد الواحد المراكشي في كتابه «المعجب في تلخيص أخبار المغرب»: ما أظن أن في الدنيا مثله. فقد كان، ونحن هنا نلخص أخبار عبد الواحد عن البيمارستان، هذا قصرا كبيرا بديع الزخارف، وكانت في حدائقه الواسعة جميع الأشجار والنباتات، وفيها برك جميلة. أما الفراش فكان نفيسا من الصوف والكتان والحرير والأديم. وأجرى عليه ثلاثين دينارا في اليوم الواحد برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة. وجلب اليه من الأدوية وأقام فيه الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال. وأعد فيه للمرضى الثياب اللطيفة ــ لليل والنهار، وللصيف والشتاء. فاذا نقه المريض خرج ومعه مال يُعْطاه ليتعيش به ريثما يستقل. وكان المنصور يزوره كل يوم جمعة بعد

الصلاة، ويتفقد شؤون المرضى ويحادثهم.

والبيمارستان، في الاسلام كان مكانا للعلاج، ومدرسة للطب بأنواعه وفنونه، وكان مستشفى تعليميا للاطباء الناشئين. وكان أطباء البيمارستان يمنحون الاجازة في الطب لمن يقرأ عليهم أو لمن يتقدم للامتحان أمامهم. كما ان البيمارستان كان حقلا مهما للتجارب في أمور الصيدلة، اذ كانت تركب فيه الأدوية على اختلاف ماهياتها وتركيباتها وأصنافها.

أما ادارة المستشفيات فقد كانت أصلا يعهد بها الى الأطباء. ولكن تعقد ادارة المستشفيات مع الزمن حمل الذين ينشئونها على تعيين موظف كبير، وقد يكون القاضي في المدينة، أو نائب السلطنة (في عهد المماليك) نفسه. ذلك بأن الناظر في البيمارستان كان عليه أن يعنى بواردات الأوقاف وعمارة الأملاك واستثمار البساتين والحوانيت والطواحين والحمامات بحيث تستمر في تزويد البيمارستان بحاجته.

وهنا يطرح سؤال نفسه، مع كثرة هذه البيمارستانات ومع التقدم التي أصابها والتعقيد في ادارتها، هل كان ثمة من وضع دليلا لمن يعهد اليه بادارة البيمارستان؟ انها كانت وظيفة كبيرة، والوظائف كانت تعتبر دوما من الصناعات، وكتب الانشاء مثل «صبح الأعشى» للقلقشندي، كانت تعنى بتحديد الوظيفة ومسؤوليات شاغلها، فماذا كانت حال البيمارستانات؟.

لا نجد في كتب الصناعة كتبا خاصة بادارة البيمارستانات. لكننا نجد وصفا للواجبات مصاغة بشكل عام في أماكن مختلفة. لكن يتوجب علينا أن نذكر ثلاثة أمور هي التي توضح لنا هذا الوضع. وأولها ان كل تعيين لناظر لمستشفى (بعد عهد الأطباء كرؤساء له) كان يحتوي على تحديد لعمله، وتنشيط لهمته كي يتقن هذا العمل، هذا فضلا عن أن الوقفية بالذات كانت تعين وجوه الانفاق أما بشكل عام أو بتخصيص كل جزء منها لأمر أو لآخر. وثانيها أن الأطباء والصيادلة ومن يساعدهم، كانت بين أيديهم كتب صناعتهم، على النحو الذي مر بنا بالنسبة للطب والصيدلة. وبعض كبار الأطباء والصيادلة وضعوا هم أنفسهم كتب الصناعة التي تخصهم وهم يعملون في البيمارستان. أما الأمر الثالث فهو انه كانت ثمة رقابة دقيقة على الأطباء والكحالين والجرائحية والصيادلة بواسطة المحتسب.

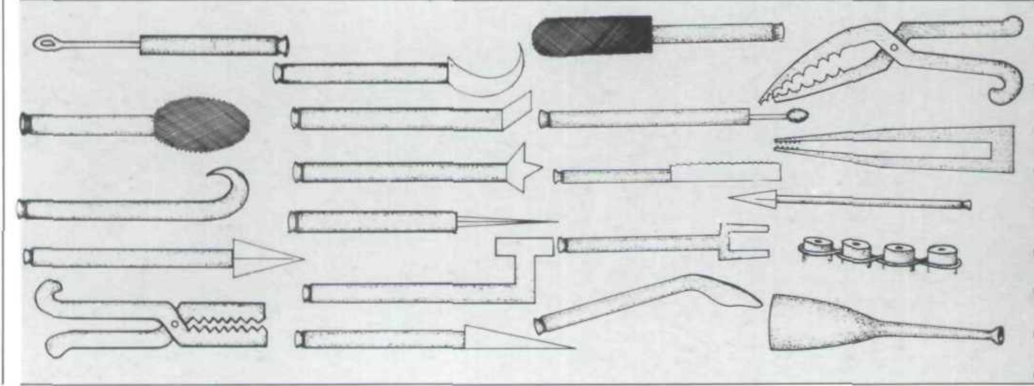
فالحسبة التي كانت تدور أعمالها حول مراقبة جميع أنواع الأعمال الصناعية والتجارية والتعليمية، والتي كان المحتسب ينفذها، كان الغرض منها أصلا منع الأذى من الوصول الى الناس. ولم يخرج الطب وما اليه عن ذلك. وقد مر بنا ان الطبيب عند العرب والمسلمين لم يصدر له تشريع خاص لعقابه (كما كان في شريعة حمورابي — راجع الحديث عن الطب) بل دعي الى تجنب ايصال الأذى الى المريض.

ومن هنا كانت مراقبة المحتسب لهؤلاء المهنيين مراقبة يقصد منها ذلك بالذات. وهذا هو الذي نعثر عليه في كتب الحسبة.

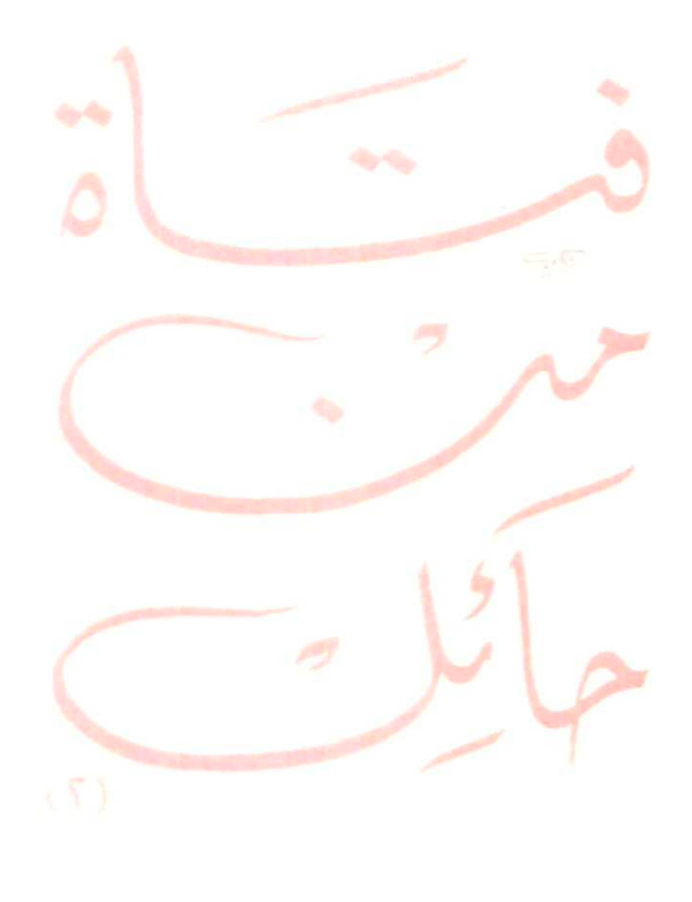
ورغبة منا في توضيح هذه القضية بالذات، فاننا ننقل أهم ما جاء في كتاب «نهاية الرتبة في طلب الحسبة» الذي وضعه عبد الرحمن بن نصر الشيزري المتوفى في عام ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م، وكان معاصرا لصلاح الدين، وكتابه أقدم كتب الحسبة التي وصلت الينا. فهو يقول في فصل عنوانه «في الحسبة على الأطباء والكحالين والجرائحيين والمجبرين»: «وينبغي للمحتسب أن... يحلفهم، أي الأطباء، أن لا يعطوا أحدا دواء مرّا، ولا يركبوا له سما، ولا يصنعوا السمائم عند أحد من العامة، ولا يذكروا للنساء الدواء الذي يسقط الأجنة ولا للرجال الدواء الذي يقطع النسل. وليغضوا من أبصارهم عن المحارم عند دخولهم على المرضى، ولا يفشوا الأسرار ولا يهتكوا الأستار». وهذه، كما ترى، منتزعة أصلا من عهد ابقراط. ثم ينتقل الشيزري الى الناحية المهنية، فيقول: «وينبغي للطبيب أن يكون عنده جميع آلات الطب على الكمال مما يحتاج اليه في صناعة الطب غير آلة الكحالين والجرائحيين.» وطلب الشيزري من المحتسب أن يمتحن الأطباء بما ذكره حنين بن اسحاق في كتابه المعروف بمحنة الطبيب، كما رغب اليه في أن يمتحن الكحالين بكتاب حنين بن اسحاق المعروف بـ«المقالات العشر في العين». ويطالب الشيزري المحتسب بأن يأكد بأن الجرائحي يعرف التشريح وأعضاء الانسان، وأن يعرف المراهم اللازمة في حالات جراحية معينة، وأن يكون معه «دست المباضع فيه مباضع مدورات الرأس والموربات وفأس الجبهة ومنشار القطع ومجرفة الأذن وورد السلع ومرهمدان (مجمع) المراهم ودواء الكندر القاطع للدم». وظاهر أن المحتسب، اذا أراد القيام بواجبه، فانه يتجه الى الأطباء والجرائحيين وغيرهم ممن كانت لهم عيادات خاصة، أما العاملون في البيمارستان فثمة من رؤساء أقسامهم وشيوخ صناعاتهم من يشرف على أعمالهم.

أما في الحسبة على الصيادلة فيقول الشيزري: «تدليس هذا الباب كثير لا يمكن حصر معرفته على التمام، فرحم الله من نظر فيه، وعرف استخراج غشوشه، تقربا الى الله تعالى. فهي (الغشوش) أضر على الخلق من غيرها. لأن العقاقير والأشربة مختلفة الطبائع والأمزجة، والتداوي على قدر أمزجتها. فمنها ما يصلح لمرض ومزاج، فاذا أضيف اليها غيرها أخرجها عن مزاجها فأضرت بالمريض لا محالة».

ولعل الشيزري أدرك ان المراقبة قد لا تجدي فأضاف قائلا: «فالواجب عليهم أي الصيادلة أن يراقبوا الله عز وجل في ذلك. فينبغي للمحتسب أن يخوفهم ويعظهم وينذرهم بالعقوبة والتعزير، ويعتبر (يفحص) عليهم عقاقيرهم في كل اسبوع □



ملامح من الأدب الاسلامي :





بقلم : فاضل السباعي / دمشق

«هشام» بطل رواية «فتاة من حائل» كانت تقف بطلتها «هيا». والحق، ان ما تميز به سلوكها أنها كانت «مطيعة جدا» وهي في الوطن، و«صعبة المراس جدا» وهي في العالم الجديد، و«ذكية جدا» في الوطن وفي أمريكا على حد سواء.

فأما طاعتها وهي في الوطن، التي قاربت أن تكون «طاعة عمياء»، فقد رأيناها منافية لطبيعة الأشياء، فلسنا نتوقع من زوجة أن تسكت على قرار زوجها المفاجىء بالسفر الى الخارج عاما كاملا دون اصطحابها، وأن تقسر نفسها على ابداء «الموافقة» على هذا السفر، مع أن حماها بالغ في تحريضها على الاعراب عن صريح رأيها: «أقسم بالله العظيم أن هشام ما يسافر في هذي البعثة الا وانتي معه... أو.. بلاش من البعثة كلها..» (ص١٧٦)

وأما عنادها، وهي في صحبة زوجها في أمريكا، الذي أسرفت فيه اسرافا جعل الزوج يعجب من أن الجمال فيها «والرقة والنعومة والحب، تتحول في مثل ومض البرق الى كتلة من الصلابة والرفض اذا ما حاول أن يجعلها تتكيف ولو بعض الشيء مع الجو الذي يعيشان فيه مما تعتبره منافيا لتربيتها ومبادئها» (ص ٣٢٤)... ان هذا العناد، الذي عصف في حياة الزوجين السعيدين حتى لأوشك أن يدمرها تدميرا، جدير بأن نتوقف عنده لحظة، متسائلين عن معنى أو حقيقة «التكيّف» الذي أراده لها هذا الزوج المحب الذي طالما فاض قلبه بالأشواق اليها وهو عنها بعيد.

فعندما «أبلغها بأنهما سيسهران تلك الليلة في منزل أحد زملائه المبتعثين السعوديين المتزوجين (... أجابته:) «أجلس أنا وزوجة زميلك هذا في غرفة، وتجلس أنت معه في غرفة أخرى» (ص ٢٩٢)، وبعد حوار يتناول الزوج الهاتف معتذرا لزميله «عن عدم القيام بالزيارة» (ص ٢٩٦).

ولحظة انحنى «الدكتور باركر» لدى دخولها هي وزوجها بيته— على يدها يريد تقبيلها، «أجفلت، ثم سحبت يدها بسرعة..»! (ص ٣٠٩). ويوم عرض عليها أحد الطلاب— وهي في حفلة جامعية بصحبة زوجها— أن تراقصه، أسرعت ترد عليه:

«آسفة.. لا أستطيع..» ! (ص ٣١٧). ولقد كان الخلاف بينها وبين زوجها، في هاتين الحالتين، ليس بسبب سحبها يدها من يد الدكتور باركر، ولا لأنها رفضت قبول مراقصة الطالب، بل كان مرده الى «الطريقة» التي عبّرت بها هيا عن شعورها وعن اعتذارها والتي يراها هشام طريقة غير لبقة، وبالتالي تسبب احراجا للآخرين [1].

وأما المسألة التي تركز حولها أشد الخلاف بين هيا وزوجها، فقد كانت اصرارها على أن ترتدي لباسها التقليدي (العباءة) وما يلحق به من «لفة» على الرأس، في مجتمع تغدو بهما المرأة محطا لأنظار الفضوليين. ولا بأس في أن نقتطف شيئا من الحوار الذي دار، مرة، بينها وبين زوجها حول هذا الموضوع:

يقول هشام دهشا: «ما هذا؟ (...) ما هذه اللفة التي تضعينها على شعرك؟ (...) انك ستكونين موضع سخرية بهذا اللباس!»

تقول هيا في لطف بالغ: «اصغ الي يا حبيبي.. أنا امرأة اعتادت (على) نمط معين من الحياة.. من القيم.. وملابسي هذه جزء من حياتي وقيمي.. انني لا أشاركك الرأي في أنني سأكون موضع سخرية بذلك.. أنا أعتقد العكس.. وانهم سيحترمون فيّ احترامي لقيمي، وكان يمكن أن أكون موضع سخرية فعلا لو أنني لبست كما يلبسون.. فأكون بذلك كالغراب الذي ما أصبح طاووسا ولا بقي غرابا.. هل تفهمني يا هشام؟»

فيصيح هشام بغضب مفاجىء: «لا.. لا.. لا أفهمك.. ولا أريد أن أفهمك.. (...) انك ستجعليني موضع سخرية بآرائك هذه.. ألا يكفي أنهم ما زالوا يعتقدون أننا بدو جاؤوا من الصحراء؟ (... تريدين أن) يتهامس القوم فيما بينهم عن زوجتي التي تأبى أن تتصرف، وتلبس، مثلهم.. بصورة حضارية،،» (ص ٢٢٩ و٣٠٠) [2].

وأحسب أن الفصل في هذه المسألة ليس بالأمر الهين. فلكل من هيا وزوجها ما يمكننا أن نسميه «مسوّغات» للموقف أو للزي الذي انطلق منه. ولكني أحسب، أيضا، أن مسوّغات هيا لم تكن ناجمة عن مسلك اسلامي خالص، ما دام واضحا أن الزوج لم يطلب منها الاستجابة للمراقصة أو لتقبيل اليد، وعلى ذلك يصبح من نافلة القول توسل هيا لزوجها: «أرجوك لا تدفعني الى هاوية الاختيار بينك وبين طبيعتي واخلاقي التي نشأت عليها»، مما حمله على أن يدافع عن نفسه: «أرجو ألا تظني أنني أقل عنك تمسكا بأخلاقنا وتربيتنا وتقاليدنا.. كل ما في الأمر أنني حاولت أن نجاري القوم فيما لا ضرر فيه.. كيلا نبدو أمامهم، كما حدث معي أول مرة، بصورة تثير استغرابهم وتقولهم علينا» (ص ٣١٢ و٣١٣)، ومما جعلنا —نحن القراء— نراها وقد تجاوزت حدود التمسك بالأخلاق والتربية والتقاليد الى حالة تقترب من التزمت المقرون بالعناد!

وأما ذكاء هيا الوقاد، الذي أوحى لها بأن تحل معضلة زوجها الذي رسب رسوبا ألغيت معه بعثته، وذلك باقتراحها على الملحق التعليمي السعودي، في نيويورك، هاتفيا، أن تلتحق هي بالجامعة طالبة مبتعثة، فيتاح بذلك لزوجها البقاء الى جوارها «محرما (ص ٣٤٢)، وقبول هذا الاقتراح منها، ثم نجاحها في الدراسة هي وزوجها... ان ذلك كله يقدم للقارىء صورة مشرقة للمرأة العربية المسلمة وهي في ديار الغربة، وان كانت مغالاة المؤلف في هذا الصدد غير خافية، ولا يماثلها الا مغالاته في ما خلع على بطلتنا الشابة، قبل ذلك، من سمات الطاعة والتزمت والعناد!

فأما والد هشام، فقد رأينا أن ما بينه وبين ابنه كان يقوم على احترام من الابن لأبيه، يقابله تقدير وتفهم من الأب، الذي سهر على اعداد الابن منذ صغره «لتحمل مسئوليات الحياة»، موقظا روح الرجولة فيه باستمرار (...) وكان كثيرا ما يبعث به لأداء بعض المهام في جدة والرياض، ويصحبه معه في زياراته لبعض الشخصيات الهامة» (ص ١٤٣ و١٤٤). وبالاختصار: لقد عوّد الأب ابنه على «ان يتخذ قراراته الحاسمة بنفسه» (ص ١٢٣). ومن أجل ذلك لم يكن غضب الأب شديدا ساعة علم بنبأ اختيار ابنه زوجته في معزل عنه وعن الأسرة. وسرعان ما سوّيت المشكلة مع اعتذار الابن منه، وعودة الأب الى سابق مواقفه الواعية.

واذا كان والد هشام قد جاء في الرواية على هذه الصورة من التعقل والرشاد، فان المؤلف قدم لنا «والدة هشام» على صورة أخرى: لقد «اعتادت (على) أن توافق زوجها في كل ما يقوله، ومن غير أن تبذل أي عناء في التفكير..» (ص ١٤١). وأما «والدة هيا»، فلم نعثر في الرواية كلها على ملامح لها، مما جعل من المتعذر اخضاع سلوكها لمجهر الحكم والتقويم!

الا أن توقفنا عند شخصية أنثوية ثالثة، هي «رجاء»، سيكون نافعا وممتعا في آن. لقد بدت لنا شقيقة البطل، من لحظة ظهورها على مسرح الرواية، وهي تفيض نشاطا ومرحا ورغبة في أن تخطب لأخيها، الأكبر والأوحد، العائد لمسقط رأسه مهندسا: «لك عندي عروسة، انما.. ايش؟.. روعة..» (ص ٧٧).

ويوم فوجئت —كما فوجئت الأسرة كلها— بنبأ زواجه، «كانت دهشتها أكثر من انزعاجها، (... ولكنها) نهضت على الفور متجهة الى غرفة هشام (...) تقبل وجنتيه، وهي تردد عبارات التهنئة، دون أن تقول كلمة عتاب واحدة» (ص ١٤٨). ثم تولت، هي نفسها، في حيويتها الفياضة، «شراء الهدايا التي ستأخذها العائلة معها الى حائل، وأبدت من الحماسة والاهتمام بالرحلة، كأنها هي التي اختارت هيا لأخيها..» (ص ١٤٩).

وهكذا بدت لنا هذه الفتاة نموذجا بارعا للشقيقة المسلمة، التي تستطيع أن تتغلب على عواطفها في سبيل مصلحة الأسرة. انها ذكية، وقادرة على أن تقمع رغباتها الشخصية، بصمت وبعيدا عن أي ضوضاء. ويا ليت الأخوات والأمهات، في العالم بأسره، يقتدين بها في ما مارسته من سلوك.

ومثلما برز لنا والد هشام رجلا واعيا في مضمار تربيته لابنه، كان هناك، في الاسرة الأخرى، «الشيخ عبدالله»، والد هيا، الذي وجدناه، كذلك، رجلا واعيا في مضماره، أعني: في تذليله لعقبات الزواج وتبسيطها.

رأينا في البداية، يعود الى القاعة «ووراءه فتاة ملتفة في عباءة سوداء، ولا يبدو منها سوى وجهها الوضاء» (ص ١١٩)، كي تتلاقى النظرات بينها —ولم تكن الا ابنته هيا— وبين «طالب اليد» هشام. «واحمر وجه

الفتاة التي جلست على كنبه قصية، بينما أطرق هشام خجلا وقلبه يرقص بين ضلوعه» (ص ١٢٠)، والشيخ، العارف بأحكام الدين، يقول: «ان لك يا ولدي الحق في أن تراها وفق ما أمر به الشرع الحنيف، مقبلة مدبرة، وأن تقول رأيك النهائي بعد ذلك بصراحة.. وأن تراك هي كذلك وتقول رأيها..» (ص ١٢٠).

ثم رأينا — هذا الأب الشيخ — كيف تخطى تلك التقاليد المرهقة، عندما قام بعقد قران ابنته على هشام في «حفلة» توخى أن تكون «متواضعة» جدا، معلنا دون تردد رأيه الحصيف في ما يقام من حفلات باذخة في الأعراس: «كم يتكلف الناس على أمثال هذه الحفلات.. وبعضهم يستدين هذه التكاليف ليقضي بعد ذلك سنوات طويلة وهو يسددها (...) ان مثل هذه الأمور يجب أن يوضع لها حد» (ص ١٢٨ و١٢٨)[3].

ذلك كله يجعلنا نرى في هذا الأب الشيخ قدوة حسنة للآباء المتنورين الذين يعنيهم تسهيل زواج بناتهم، وتخفيف الثقيل من أعبائه على الأزواج الشباب. ولكني أعترف بأن شيئا ما في سلوك هذا الأب — الحريص على اختصار حفلات الزواج — قد استوقفني وحملني على التأمل، وذلك هو ما لاحظته فيه من التسرع والتعجل!

لقد تقدم هشام بطلب اليد في مساء يوم.. فكان جواب الأب وليمة عشاء أقامها في الليلة التالية عينها، ومأذونا — ويا للمفاجأة — جاء يتأبط أوراقه لعقد القران» ! (ص ١٢٦). أفلم يخطر على بال هذا الشيخ، المحنك، أن من حق الشاب أو أن عليه أن يرجع الى أهله، المقيمين في مدينة أخرى، يستشيرهم ويدعوهم لحضور حفلة عقد القران مهما تكن متواضعة؟! أم أن ما هدف اليه الشيخ من اختصار للحفلات قد جره الى اختصار الزمن أيضا؟!

ولم يكن «ناصر»، ابن هذا الشيخ المتنور، بأقل من أبيه تنورا وشجاعة رأي. انه — وهو الصديق الحميم لهشام في العمل — يعرض عليه بصريح العبارة: «اني اقترح عليك أن تتزوج أختي هيا.. (ويضيف) اذا أردت أن تتقدم الى الوالد وأن تخطبها منه، فانني سأساعدك بكل قواي.. (ويستدرك) وأود أن أؤكد لك مرة أخرى أنني ما فعلت مثل هذا أبدا.. ولا حدث في عائلتنا.. ولكنني، محبة مني لك، أقترح عليك هذا الاقتراح..» (ص ١١٢ و١١٣).

والواقع أن ناصر، الشاب، يقتدي، في اقتراح هذا، بالفضلاء من المسلمين الذين يعمدون أحيانا الى أن يعرضوا الزواج من بناتهم على من يأنسون فيهم الكفاءة الخلقية من الرجال. وهم في هذا يتأسون بالقدوة الحميدة التي استنها «عمر بن الخطاب»، في حياة رسول الله، عندما عرض الزواج من ابنته على «أبي بكر» ثم على «عثمان»[4].

ولن يفوتنا، أخيرا، أن نلحظ طوابع المحبة والالفة والاحترام والتعاون، التي سادت جو الأسرتين الاسلاميتين في الرواية، وطبعت كذلك العلاقات بين الأفراد الذين كانوا يظهرون بين الحين والحين.

ان هشام ينحني على يدي والده مقبلا، وهذا من التقاليد التي درجت عليها الأسر الاسلامية. وللرجل في البيت — زوجا كان أو ابنا — منزلته لدى نساء الأسرة، فعندما وصل هشام الى بيت أهله قادما من سفره البعيد، تسأله الأم عما اذا كان قد تعشى؟ ثم... «هبت أمه وزوجته، في آن واحد، لتحضير الطعام له» (ص ٢٧٣). ولدى وصوله، في المرة الأولى، الى البلدة الجامعية في أمريكا، كان ينتظره في المطار اثنان من المبتعثين السعوديين، وقد هتف اليهما المكتب التعليمي في نيويورك، ليكونا في استقبال هذا الوافد الجديد الى بلدة «ماونت بلزانت» التي فيها يتعلمان. وفي سيارة احدهما تجولا به في أنحاء البلدة وعرّفاه بمعالمها، وأصر الآخر على استضافته في بيته.

وبعد،

اذا كان المؤلف — كما قال في المقدمة — يحاول في روايته «اعادة تشكيل ملامح واقعية عرفتها أو عايشتها، أو اطلعت عليها بشكل أو بآخر، وهي أيضا (أي الرواية) جهد يهدف الى رسم بعض صور المجتمع السعودي بوجه خاص»، واذا كان قد حرص «على رسم وتسجيل بعض الصور الفنية النابضة بالحياة لمجتمعنا، لا سيما وأن بعضها آخذ في الاندثار مع هذا التطور السريع الذي أصبح يلتهم الكثير منها...» (ص ٩).

أقول: اذا كان هذا كل أو بعض ما هدف اليه مؤلف «فتاة من حائل»، فأشهد أن محمد عبده يماني قد وفق الى أن يصور لنا جانبا من مجتمعه على نحو ما يهوى. واستطاع كذلك، أن يضفي، من قيمه، على شخوص روايته وعله وعلى العلاقات التي نسجها على نول فنه، جعلها قريبة من قلب قارئها، تمتعه وتنفعه في آن معا □

المراجع:

١ — في انتقاد زوجها لها على اعتذارها غير اللبق للطالب. يقول هشام في ضيق: «أنا لم أقل ان عليك ان تراقصيه.. انني، أنا نفسي، أرفض ذلك طبعا.. ولكن.. ولكن كان يمكن ان تكون طريقتك في الرفض أقل قسوة..» (ص ٣٢١).

٢ — اقتطفت من الحوار، وهو طويل، هذا القدر الذي يمكّن من استيعاب وجهة نظر كل من الزوجين.

٣ — ولقد أشار المؤلف، أيضا، عبر خواطر هشام، الى مسألة المهر، وعهده بالناس يبالغون في هذه الناحية...» (ص ١٢٥). فتوقعنا من المؤلف أن يتوقف عند هذه المسألة وقفة، لنرى كيف يقوم الشاب والشيخ معا بحسمها. ولكنا فوجئنا بالمأذون، في الليلة التالية، وهو يعقد القران قائلا لهشام: «زوّجتك وأنكحتك مخطوبتك المصونة هيا بنت الشيخ عبدالله، على ما تراضينا عليه من المهر،...» (ص ١٢٧). فما هو مقدار المهر الذي تراضيا عليه؟ لم انصرف المؤلف عن معالجة هذه المسألة، بعد وقوع الاشارة اليها، وقد باتت الفرصة مواتية؟

٤ — كانت «حفصة» ابنة عمر بن الخطاب قد فقدت زوجها «خنيس بن حذافة السهمي» شهيدا في غزوة بدر. ويتألم عمر لابنته الشابة التي ترملت وهي في الثامنة عشرة من عمرها ويبدو له أن يختار لها زوجا. فيذهب الى «أبي بكر الصديق» صفيّ الرسول، فهو، في رزانة كهولته وسماحة خلقه، كفيل بأن يختص حفصة بما ورثت عن أبيها من حدة المزاج. وقد كان عمر موقنا أن أبا بكر سيرحب بالشابة التقية. ولكن الصديق يمسك ولا يجيب! فينصرف عمر شبه ذاهل، ويمضي الى «عثمان بن عفان»، وكانت زوجته «رقية» بنت الرسول قد مرضت بالحصبة وماتت، ويعرض عليه حفصة. فكان جواب عثمان: «ما أريد أن أتزوج اليوم»! فينطلق عمر، بما في نفسه من ألم ومرارة، الى رسول الله ليشكو له صاحبيه، فيتلقاه الرسول هاشا باشا ويسأله ملاطفا، ثم يقول: «يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة». وهكذا تزوج الرسول عليه الصلاة والسلام بحفصة، وتزوج عثمان بابنة رسول الله «أم كلثوم». (يراجع، في ذلك، كتاب «نساء النبي» تأليف الدكتورة بنت الشاطىء، «سلسلة كتاب الهلال» العدد ١٩، الصفحات ٩٦ — ٩٨).

التركيب السكاني والأمراض النباتية

بقلم : الدكتور حسين العروسي / الأحساء

من العلاقات المفهومة الواضحة ، العلاقة بين المجموعات النباتية في مكان ما والأمراض النباتية الموجودة بها ، أو العلاقة بين الكائنات الحيوانية السائدة في جهة ما وبين الأمراض الحيوانية الكامنة بها ، أو العلاقة بين المجاميع السكانية وقابليتهم للاصابة بمسببات أمراض البيئة التي يقطنونها . أما الحديث عن علاقة بين مرض نباتي أو آفة حشرية تصيب النباتات وبين أصول سكان يقطنون منطقة معينة فقد يظهر للوهلة الأولى أمرا مستغربا يحتاج من القارىء الى وقفة تمعن وتفكر .

التركيبة السكانية في معظم مناطق العالم القديم تركيبة تتشكل في كل منطقة منها من أصل سكاني ثابت يمثل الأغلبية العظمى ، ومن مجموعات وافدة استقر بعضها واندمج ضمن الأصل وانصهر فيه ، والأقلية من الوافدين قد تنعزل جانبيا مكونة لأقليات عنصرية .

أما اذا نظرنا الى سكان الأمريكيتين وأستراليا ونيوزيلنده فإننا نجد أن الصورة قد اختلفت ، اذ حدثت اليها هجرات كبيرة طغت على الأصل السكاني ، فأصبح المهاجرون أغلبية وأصبح السكان الأصليون أقلية . تحكمت في تلك الهجرات الكبيرة عوامل كثيرة بعضها سياسي وبعضها اجتماعي وبعضها اقتصادي وبعضها ديني ، وبذلك تميزت كل دولة من تلك الدول بتركيبة سكانية خاصة .

هذا ما يتعلق بالانسان والتركيبة السكانية له ، أما النباتات وأمراضها وتركيبتها فلعلنا نوفق في ايضاح ما نحن بصدده . كل الكائنات الحية ، حيوانية كانت أم نباتية ، تعيش حياتها الطبيعية كاملة ، تتغذى وتتنفس ، تنمو وتتكاثر ، تحس وتتحرك . قد تتمتع بالصحة طوال حياتها ، وقد تتعرض للمرض في بعض فترات حياتها . ولكل مرض سبب أو مسببات ، قد يحدث نتيجة تغيير لأحد أو لبعض عوامل البيئة المحيطة بالكائنات الحية . وكثير من الأمراض تنتج عن كائنات دقيقة صغيرة غاية في الصغر ، دقيقة غاية في الدقة ، لا ترى بالعين المجردة ، واذا ما فحصتها بالمجهر أنكرتها لفرط تفاهتها ، ولكنها قد تحدث بالكائن الحي الذي يفوقها حجما ملايين بل بلايين المرات ، ما يوقف نموه ، أو يمنع تكاثره أو يعجزه عن الحركة أو يغير من لونه ، وفي الأغلب الأعم يصيبه بالضعف والهزال . والمرض يظهر على الانسان ، كما يظهر على الحيوان ، وكما يظهر على النبات . ويتألم الانسان ويتأوه الحيوان من المرض ، أما اذا مرض النبات فالمتألم والمتأوه هو الانسان . يحزن الانسان لنقص محصوله أو لفقدانه ، ويكتئب لجفاف الشجر في بستانه ، ويحب أن يرى أزهاره يانعة متفتحة

ويكره أن يراها ذابلة مترهلة.

العلاقة بين المرض النباتي والانسان ليست فقط علاقة غذاء بل هي كساء.. وعلاقة اسكان.. وعلاقة جمال.. وعلاقة متعة. فكما يتأثر الانسان بهجوم الكائن الدقيق عليه مسببا له الوهن والتعب، والضعف والهزال، فهو أيضا يتأثر بهجوم الكائنات الدقيقة على ما يحب وما يربي وما يستثمر من نباتات. وقمة التأثر تظهر عندما يترك الانسان داره وارضه ووطنه لأن مرضا داهم نباتاته. من السهل تصور انسان ترك داره هربا من لص داهمه أو ترك أرضه ووطنه هربا بدينه من اضطهاد أو هربا من عدو احتل وطنه أو سعيا وراء رزق أفضل.. أما أن يترك انسان داره وأرضه ووطنه خوفا من مرض يهاجم نباتاته، فذلك هو المستبعد، الا أنه حقيقة حدثت في التاريخ فأكبر هجرة حدثت في عالمنا كانت بسبب مرض واحد أصاب محصولا واحدا. كانت الهجرة من أوربا الى امريكا.. ارتبطت تلك الهجرة بقصتين، قصة نبات تحول من نبات مغمور الى أكبر محصول عالمي، وقصة ميكروب نباتي لم يكن معروفا ولا مؤثرا فأصبح فتاكا، هاجم المحصول فأباده، فهلك من الشعب من هلك، واستسلم من استسلم، وفر من الصدمة من فر.

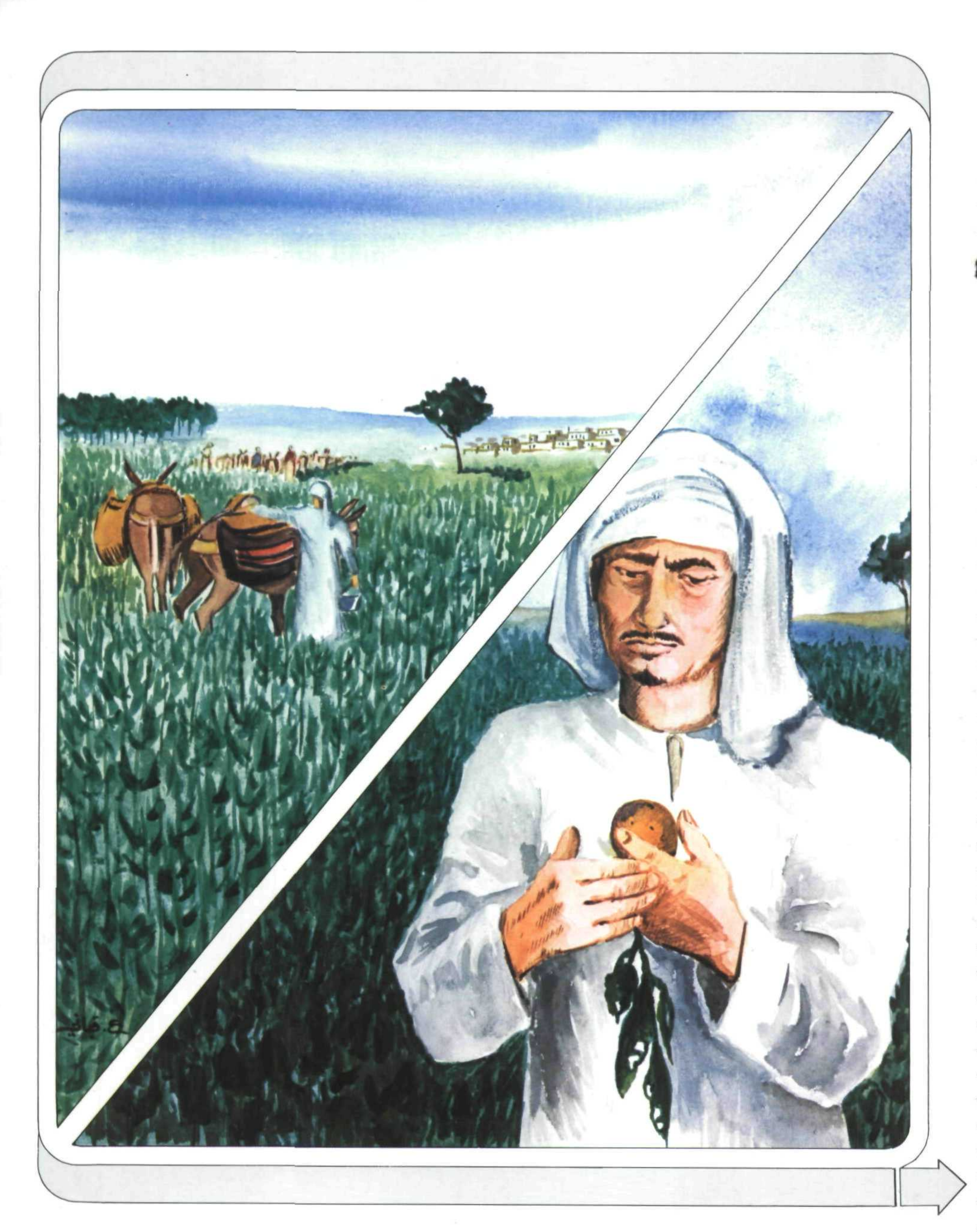
النبات المغمور الذي صار محصولا مشهورا هو البطاطس. لم تكن البطاطس معروفة في العالم قبل سنة ١٥٠٠ ميلادية الا في مساحات قليلة من امريكا الجنوبية، ثم نقلها المستعمرون الأوائل الى أوربا مع بعض المحاصيل الأخرى التي تعرفوا عليها كالذرة والدخان. استمرت البطاطس في عالم النسيان بعد ذلك — مدة قرنين من الزمان، لا تزرع الا في الحدائق النباتية استكمالا للمجموعة النباتية، حتى حان الوقت واكتشف البعض أهمية درناتها في غذاء الانسان، فزرعت كمحصول وانتشرت زراعتها انتشارا سريعا في أنحاء أوروبا بصفة عامة وفي ايرلندا والجزر البريطانية بصفة خاصة، وأصبحت بالنسبة لمعظم شعوب هذه البلاد المصدر الأول للكربوهايدرات بعد أن كان مصدرها القمح والشوفان وغيرهما من النجيليات. وأصبحت البطاطس عالميا، المحصول الأول الذي يتفوق من حيث كمية المحصول الناتج على جميع المحاصيل النباتية الأخرى.

وليس هناك من المحاصيل ما انتقل من دنيا الجهل والنسيان الى عالم الشهرة والانتشار بمثل ما حدث لمحصول البطاطس... وللشهرة ضريبتها فقد كان للبطاطس عدو في موطنها الأصلي، امريكا الجنوبية، هو ميكروب معروف باسم فيتوفثورا انفستانز Phytophthora Infestans ، كان يداعب نباتات البطاطس مداعبة خفيفة، يهاجمها فتصده ولا ينال منها الا قليلا. انتقلت البطاطس، أول ما انتقلت، من دنياها الى دنيا جديدة في أوربا تاركة عدوها في أرضها. وقد عز على الميكروب أن يترك نباتات البطاطس تنتشر وتتسع زراعتها في مناطقها الجديدة، فلاحقتها بعد حوالي ثلاثة قرون من الزمان من أمريكا الى أوربا، نقلها أحد الأشخاص على درنات مصابة قبيل سنة ١٨٤٠ ميلادية، كما نقل أجدادهم النباتات السليمة حوالي سنة ١٥٠٠ ميلادية.

تحول الميكروب في الأرض الجديدة، ومع المحصول الذي انتشر انتشارا سريعا، من عدو مداعب الى عدو فتاك، فكانت له كل عام جولة مع محصول البطاطس حتى جاء موسم البطاطس سنة ١٨٤٥، حيث كانت أشد جولاته فتكا في زراعات أوربا وكانت ضربته لمحصول البطاطس في ايرلنده ضربة قاضية، حيث هاجم زراعات البطاطس النامية الخضراء صيف ذلك العام محولا اياها في أيام قليلة من نباتات خضراء غضة يانعة الى عروش ذابلة داكنة، تهتز لمنظرها النفوس حزنا وألما، أما الدرنات التي تنمو داخل التربة والتي كانت تمني أصحابها بالرزق الوفير والخير العميم فقد صارت كتلا عفنة تنبعث منها رائحة نتنة.. فأصبح الجنان جحيما وصار السرور حزنا مقيما، وحل اليأس محل الأمل... وحل الضعف محل القوة... وحل الجوع محل الشبع... وحل المرض محل الصحة. عمت المجاعات ومات من مات، وتحول الكثير من الهزال الى هياكل حية تعيش على أقل من القليل من الغذاء، بعد أن أفنى الميكروب محصولهم الرئيسي.

وتشير المصادر الى أن نصف مليون من الشعب الايرلندي قد سقط فريسة للمجاعة في تلك السنة وأن مليونا منهم قد ماتوا نتيجة للجوع وسوء التغذية خلال الخمس عشرة سنة التالية. والكثير من الذين قاوموا سوء التغذية ويقدرون بحوالي المليونين من السكان هربوا من نقص الغذاء. وخوفا من تكرار حدوث الوباء بتلك الشدة، هربوا تاركين ديارهم وأرضهم ووطنهم الى ديار جديدة في أرض جديدة ووطن جديد... الى الدنيا الجديدة... وهناك كانوا نواة السلالة الايرلندية من الشعب الأمريكي الجديد، الذي يتكون معظمه من مهاجرين من مختلف أنحاء العالم.

ذلك مثال واضح لتأثير مرض نباتي معين، هو مرض اللفحة المتأخرة لنباتات البطاطس على تركيبة سكانية لشعب معين هو شعب الولايات المتحدة الامريكية، قد لا يعرفه معظم سكانها الحاليين بما فيهم من هم من نسل المهاجرين هربا من المرض. ويذكر التاريخ أيضا قصص مجاعات وقصص هجرات أخرى دافعها نقص الغذاء في مكان، وحلول القحط محل النعيم... وغالبا ما كان للآفات الزراعية الحشرية منها أو المرضية دور رئيسي، ورد ذكر بعضه في كتب العهد القديم في وقت كان سر الأمراض مجهولا. أما الآن فقد أصبح السر مكشوفا، والعلاج في كثير منه معروفا، والضرر الناتج عنه أصبح مقدوراً عليه □





من الأشجار المزهرة التي يفضلها ساكنو المنازل هذا النوع الجميل .

تصوير : محمد صالح آل شبيب